قصي الشيخ عسكر

الشمس تقتحم مدينة الثلوج

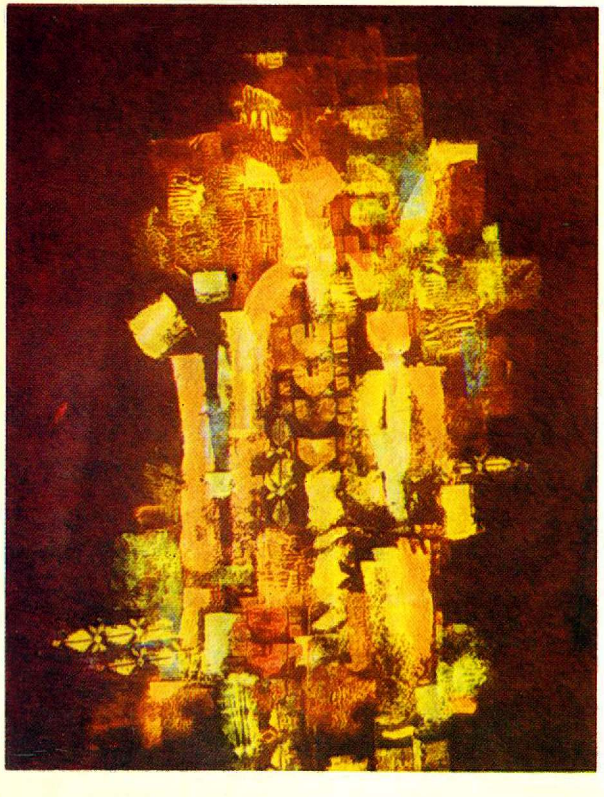

رواية

دار الكنوز الأدبية

قصي الشيخ عسكر
الشمس تقتحم مدينة الثلوج
دار الكنوز الأ

تصميم الغلاف : طالب الداوود

الشمس تقتحم
مدينة الثلوج

قصي الشيخ عسكر

الشمس تقتحم مدينة الثلوج

رواية

دار الكنوز الادبية ـ بيروت

* الطبعة الأولى ١٩٩٣
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* دار الكنوز الأدبية - بيروت
ص.ب: ٧٢٢٦

القسم الأول

- ١ -

كوبنهاغن تستقبلني في منتصف كانون الثاني بالضباب والبرد. السنة الجديدة على الأبواب، والثلج جاء سابقاً لأوانه. هبط كثيفاً فغطى الشوارع والأرصفة، وأثار عاصفة من الكآبة – كما خيّل إليّ – إرتسمت على وجوه حزينة ومتعبة، تكاد تجذبني إليها بصمتٍ فأنغرز فيها بكل هواجسي ونظراتي، ولا أستطيع الافلات منها.

كنت اتخذ طريقي من السفينة الى حيث الشارع الصامت الكئيب، على الرغم من أني لم أكن أرتدي الكثير من الملابس، لأنني قدمت مع حقيبة صغيرة فقط. هناك في آخر بلد عربي غادرته، قال لي الناس لا تثقل نفسك بالملابس، ستحصل عليها مجاناً من الصليب الأحمر، وحالما وصلت وجدت قرارات جديدة إتخذت بعد ان كثر المهاجرون. أجّل الصليب الأحمر صرف الملابس للقادمين إلى ان يحصلوا على حقّ اللجوء، ومع ذلك فقد خرجت من السفينة، وفضّلت مواجهة البرد والثلج، على أن أظلّ حبيساً في غرفتي أكثر من ثلاثة أيـام متتالية. طلبت خارطة صغيرة

من موظف الاستعلامات، وغادرت المكان المفعم بالضجيج.

شجعني على الخروج، وأثار فيّ الفضول، ما كنت سمعته في أثناء وجبات الطعام من الشرقيين، وهم يتحدثون عن شارع المشي القريب من سفينتنا ومحطة القطار، ثم الشارع المثير خلفها، فقررت ان أبدأ أول الامر بما بدأه غيري الى أن أعتاد على زيارة أماكن أخرى.

كنت قد وصلت منذ ثلاثة أيّام فقط، قبلها لم أفعل ايّ شيء اكثر من ان انصرف الى مرحاض الطائرة لأمزّق جواز سفري. هذا كل ما حدث بالضبط. قالوا لي، وأنا أنصت باهتمام الى ارشادات زوّدني بها مكتب السفريات: ما عليك إلاأن تفعل مثل ما فعله غيرك بالضبط، وحين تنزل من الطائرة إطلب حقّ اللجوء. تلك هي أكثر اللحظات إحراجاً، وما بعدها يسير. سوف لن يرجعوك الى هنا ثانية، وعليك ان تثق بمكتبنا الذي سفّر العشرات قبلك الى دول اوربيـة مختلفة.

كان الرجل العجوز صادقاً في وعده لي، فقد نقلتني شرطة المطار الى توقيف إنفرادي، بقيت داخله ساعتين فقط. زادتني الغرفة الصغيرة ذات المسطبة الخشبيــة ثقة بنفسي، قرأت عبارات على جدرانها بالعربيـة كانت لموقوفين يبدو أنهم مرّوا بالظرف نفسه. ها نحن وصلنا سالمين. لاتخف أخي القادم سنقابلك غداً في كوبنهاغن. الآن ضمنا دخول البلد. شعارات كثيرة إرتحت لها.

أبعدت الخوف عنّي تماماً.... ثم فتّشني شرطيّ تفتيشاً دقيقاً، ونقلتني سيارة الى مركز تحقيق قرب المطار. بعد ليلة قضيتها جالساً على كرسيّ خشبيّ في صالة التحقيق تمّ نقلي الى الباخرة.. وتعهّد الصليب الأحمر بمتابعة مشكلتي....

وها هي المرة الأولى التي أواجه بها كوبنهاغن....

اخترقت شارع المشي باتجاه محطة القطار. لم أكن أملك سوى (١٧٠) كرونة استلمتها من الصليب حال وصولي، وعرفت فيما بعد أنها منحة أسبوعيــة الى ان يتّخذ البرلمان قراراً بالقبول أو الرفض لطالب اللجوء. تطلعت الى السلع المعروضة في الواجهات الزجاجيّة للمحلات، فوجدت بوناً شاسعاً بين المبلغ والأرقام. قررت ألا أبتاع أيّ شيء وان كان سعره أقل مما في جيبي. لأنني لم أجد ما يعوزني، فهناك في السفينة يقدّمون لنا كل شيء: الطعام.. الشاي، بعض الفواكه. الشيء الرتيب هو أننا ملتزمون بجدول زمني. فطورنا الساعة السابعة. الغداء الساعة الثانية عشرة، والعشاء في السادسة، ولمجرد ان تتأخّر يسقط حقّك. على أية حال، بالنسبة لي، هذا أفضل من ان تجلس في موضع تطلق النار على آخرين ويبادلونك بالمثل، وسط ظروف جويّة قاسية من حرّ وبرد، وربما يصل اليك الطعام أو لا.

طردت الذكرى من رأسي بسرعة خاطفة كأني أحاول أن أهرب من الماضي القريب. عبرت تقاطع الطريق الى محطة القطار،

ثم ألقيت وأنا أقف عند باب المحطّة نظرة على الخارطة، ونزلت درجات عريضة بإتجاه شارع يقع خلف المحطّة تماماً.....

يبدو أني حاولت أن أجد في مناظر الشارع الغريبة ملاذاً ينسيني الاحساس القويّ بتصلّب أطرافي من البرد. قيل لي أنّ الشعور بالحرية ينسي الفرد الحر والبرد، وأنا ما زلت أشعر بالبرودة، وأحاول أن أشاغل نفسي بالتّطلع نحو الواجهات العارية على الرغم من حصولي قبل أيام قليلة على الحرية. وسط التناقض أقنعت نفسي بفكرة طرأت فجأة: ربّما لن أحصل على حريّتي فما زالت مسألة لجوئي قيد الدرس.

كانت مناظر الشارع توحي بالغثيان. أعضاء جنسيّة مذكّرة ومؤنّثة مصنوعة من البلاستك. ليس هذا فحسب، بل تجسّد المزج الغريب بين الجنس والسياسة بشكل غامض فهمته في وقت متأخّر. أحد المحلات عرضت صورة الرئيس الكوبي على عضو انثوي. محلٌ آخر أظهر صورة من الورق المقوّى تستدير بالكهرباء فيواجهك على ثدييها صورة لرئيس عربي، وعلى ظهرها صورة لشخصيّة معروفة... أمّا كارتر فقد رأيت له صورة وهو يبتلع.... بشفتيه الغليظتين، وعلى وجهه ابتسامة بلهاء... مشاهد غريبة جذبتني ونفّرتني منها، على أنها بعثت في أعماقي ابتسامة غريبة إمتزجت بالراحة والخيبة في الوقت نفسه.

وربّما عجزت المناظر عن ان تنسيني البرد، على الرغم من

شكلها المثير. هناك الكثير لم أره بعد. الايام طويلة وأمامي متّسع من الوقت، أما البرد فلا أستطيع الفرار منه. وقفت أمعِن النظر بالخريطة لأتابع طريق الرجوع، حين اقترب مني شاب في العقد الرابع من عمره، طويل نوعاً ما، عريض الصدر والوجه، يميل الى الضخامة. إبتسم، وسأل بأدب: هل من مساعدة؟

سمعت قبل ان أصل الى أوربا عن بعض الشاذّين من الجنسين إلا أنّي تريثت قبل ان أصدر حكماً سابقاً:

- أحاول أن أجد طريقي الى السفينة.

- أووه. انت من جماعة السفينة. كان قدومكم علامة خير فقد هطل الثلج قبل عيد الميلاد!!

ربّما تكون تعاستنا مصدر خير للآخرين، وكان عليّ أن أداري مجاملته بابتسامة شكر من غير أن أعلّق بأية كلمة، فمن المحتمل ان يكون أدرك أنّ تصرفه المفاجىء سبب ارتباكي، فاستدرك:

- أتحب ان تشرب معي شيئاً في أقرب كافيتريا؟

وجدتها فرصة مناسبة. سأوفر ثمن الكأس، وأعرف أسعار المشروبات، سارعت الى الموافقة، اجتزنا الى الرصيف الآخر، وكان يعلّق:

- كان بلدنا أشبه بالمغلق على الاسيويين وشعوب العالم الثالث حتى جاءت موجة اللاجئين، فإحتك الناس بأصحاب الشعر

الأسود، ونحن بطبيعتنا شعب متطفّل، يحبّ الكلام كثيراً.

اتخذنا مجلسنا عند منضدة قريبة من الزجاج المحاذي للرصيف. طلب قدح بيرة، وكأس شاي، وخلال انتظارنا للنادل، قال:

- "بغيبن هانسن". أمـي من أصل فنلندي وأبي من كوبنهاغن.

- كنت أسمّى.... أما الآن فلا نتعامل بالأسماء. الصليب الاحمر منحنا أرقاماً لذلك عليك ان تناديني الرقم....

أطلق ضحكة، وعلّق:

-اووه إنـه أقل عدداً من رقم تلفوني!!

ثم رفع كأسه:

- صحـة... نحن نحب البيرة. يجب ان تعرف هذا. أما أنتم فيبدو أنكم مثل الانكليز تحبـون الشاي.

- جميل جداً ان يكون العامل المشترك بين العرب والانكليز هو الشاي.

قال بضحكة خفيفة:

- اما البيرة فهي العامل المشترك بيننا والروس.

تطلّعت الى الخارج، فلفت نظري أنَّ السماء بدأت تنث، وكان صاحبي يتكلم من دون توقـف. عرفت أنه الابن الوحيد لأمـه.

حالته المادية جيدة. يحبّ السياحة، وقد زار بعض الدول العربية الافريقية. أعجبه القليل فيها وإستاء من الكثير. قاطعته عمّا أعجبه، فعقّب: الشمس المشرقة وطيبة الناس.. لكنّه حين جمع السلبيات وجدها أكثر من الايجابيات، فقرر ان يقتصر في سفراته السياحية القادمة على دول اوربا الغربية فقط.

اقتنعت من خلال حديثه انّه ليس من الشاذين، بل هو فضوليّ كأيّ من فضوليّ محطة القطار الذين يوقفون أول أجنبيّ يصادفونه ليسألوه عن اسمه وبلده... هكذا من دون مقدّمات شجعني ذلك الاكتشاف الجديد على انّ عزلتي عن الشرقيين تفادياً للمشاكل، كانت أفضل طريق أسلكه لأندمج بالمجتمع الدنماركي. هذاالدنماركي الذي إلتقاني مصادفة قد يكون صديقاً مخلصاً. أيّد حدسي الأقوال التي سمعتها عن الاوربيين وصراحتهم، اذا أحبّك أو قبلك مدّ جسوراً بينه وبينك، واذا نفر منك إعتذر عن استقبالك. الاوربي يصرّ دائماً على صراحة غير معهودة عنّا نحن الشرقيين كي يتحرر من تبعة المجاملات والخجل. على أنّ هاجس الخوف مازال يراودني. كنت احسّ بهوة واسعة تفصلنا عن هؤلاء وانّ علينا ان نجتازها خلال فترة قصيرة تلتبس في عدّة صور أعيشها كل لحظة أبسطها وقت واحد تتحدّد به وجبات الطعام.

قلت اغتنم فرصة صمته:

- موعد الطعام الساعة السادسة.

تطلّع الى الخارج المتلبّد، وقال:

- كيف ستخرج من مكان دافىء الى الخارج؟

ربّما أدرك أنّه أحرجني، فعالج ارتباكي:

- ألم يوزّعوا عليكم معاطف؟

- لا أدري. القانون لم يعد كالسابق.

قبل ان نفترق عرض عليّ ان نتناول العشاء في شقّته يوم غد. سيأتي إلى السفينة الساعة الخامسة ليسأل عنّي. افترقنا عند محطّة القطار. خيّل اليّ بعد أن تركته في المحطّة، وعدت الى السفينة، أنني اكتشفت كوبنهاغن على الرغم من عالمي الثلوج والضباب اللذين يغلفانها منذ يوم أمس، فصعدت سلّم الباخرة واستقبلت بعد قليل الضجّة والدفء، ثم احتوتني فوضى شملت السفينة، فكادت ان تحوّلها الى قطعة شرقيّة انبثقت داخل اوربا.

- ٢ -

كنت أنزوي في غرفتي الصغيرة، ولا أصعد الى الصالة إلا حين يحين موعد الطعام. تلك الفترات عرفت خلالها نتفاً من أخبار اللاجئين. حاولت بعزلتي ان أتفادى المشاحنات وما يترتب عنها من نتائج، فقد كنّا نحن الاسيويين خليطاً من العرب والايرانيين وبعض السريلانكيين والفيتناميين بالاضافة الى لاجئين من روسيا وبولندا، وكثيراً ما كانت تحدث مشاحنات بين العرب انفسهم لإختلاف الآراء السياسيـة وبين العرب واللاجئين الاخرين بسبب سوء الفهم. العرب الشيوعيون يحقدون على اللاجئين الروس، والعرب المتدينون يحقدون على الايرانيين اللاجئين. الفلسطينيون واللبنانيون في تحالفات ومشاجرات. السفينة بحساسيتها المفرطة تكاد تكون قطعة من آسيا. الفوضى والضجيج، والشجار يستمر يوميّاً، بل كلّ ساعة، وغالباً ما يؤدي الوضع المتشنّج الى معارك دائمة تثيرها أتفه الاسباب، وكأننا لم نصدق بعد وصولنا الى اوربا، أو لم نع لحدّ الآن انّ آلاف الأميال تفصلنا عن آسيا، التي لا تنسى جوها الخالق الساخن

حتى لو نقلت في باخرة الى بحر من الثلوج!!

كنت أجلس الى منضدة مستطيلة بانتظار الطعام، حين سمعت أحد العرب يتحدّث عن صديقة اصطادها الاسبوع الماضي. اكتشفت أنّها شبقية إلى درجة تكاد أن تمزّق ظهره بأظافرها... وقد راح يتحدث كأنه طفل استهوته لعبة جديدة. مراهق في السابعة عشرة من عمره مع امرأة في الثلاثين. لم يكتف بالشرح، بل خلع قميصه وأدار ظهره ليري الآخرين آثار الجروح، وربّما سبب تصرفه إمتعاض لاجىء اوربي كما عرفت فيما بعد، فأبدى حركة نفور أو استياء... مثل هذا التصرف يكفي لأن يشعل فتيل نزاع حادٍ، ففي اقل من لمح البصر، إنقلبت منضدة، وطار كرسيّ، وتهشمت مرآة قرب الدرج. اضطررت الى ان أغادر مكاني لألوذ بأقرب زاوية حتى أجد منفذاً أتسلل منه الى غرفتي. كان جميع اللاجئين يتصرفون بصورة جنونية. إحدى المجموعات إندفعت بإتجاه مجموعة أخرى إستعدت للعراك، وشكّل بعض المراهقين حاجزاً قرب الباب الخارجي للسفينة. على مقربة من الدرج الضيق وقف لاجىء وبيده زجاجة فارغة. في الوقت نفسه إنطلقت مجموعة من خمسة أشخاص تطارد أحد اللاجئين الذي لم يجد منفذاً سوى الهرب باتجاه سطح السفينة. صرخت بعض النسوة، ثم إندفعن الى حيث لا يدرين، وامتلأ المكان بعويل الأطفال. تناثرت قطع خشبيـة، وزجاجات فارغة. وقف موظفو

الصليب بإنتظار أن ينتهي الشجار - كما اعتادوا على ذلك كلّ يوم تقريباً- غير أنّهم عندما شاهدوا بعض الدماء، وعرفوا أنّ لاجئاً حوصر فوق السطح فلم يجد منفذاً ينجيه غير ان يقفز الى النهر، عندئذ اضطرّوا الى الاتصال بالشرطة لتفضّ النزاع.

في غضون لحظات قليلة انتشرت مجموعة من رجال الشرطة على الساحل، وصعد آخرون بصحبة كلاب مدرّبة الى ظهر السفينة. كان المنظر غريباً للغاية. الكراسي مبعثرة ومهشّمة. بقايا الرز والبطاطا واللحم على الارض، وجوه غطّتها الدماء، ملابس ممزّقة، والمتشاجرون لما يكلّوا بعد، بل لم يكترثوا لحضور الشرطة....

اضطرّ شرطيّ الى ان يدفع كلبه بإتجاه متخاصمين هشّموا زجاج المرآة، وهمّوا بإقتلاع مساند الكراسي المثبّتة بأرضيّة الصالة. كان الشرطيّ يهدف الى أن يتحاشى ايّ اندفاع للمتخاصمين نحوه.. وفجأة تراجع واحد منهم، وخلع سترته، لفّها على ساعده، ثم استقبل بها أنياب الكلب، وراح يضغط بيده الطليقة على رقبة الحيوان. أُصابت الدهشة الشرطيّ، وتراجع الشرطيّان الآخران كأنّهما أُخذا بشيء فاتهما ان يحسبا حسابه منذ البدء. الكلب نفسه دفع برجليه وهزّ رأسه ليخلص نفسه من محاولةالخنق، ويتراجع محاولاً ان ينقضّ ثانية، وهو يطلق عواء حاداً، فاضطرّ الشرطيّ صاحب الكلب الى أن يستخدم عصا معدنيّة كان يعلّقها

جنبه، فرأينا اللاجىء بعد لمسة العصا، يترنّح ويتلوى على الأرض....

كان هذا أول مشهد عراك أعاصره لكوني حديث العهد. لا أخفي أنّي إستأت من تصرّف اللاجئين وانصرافهم الى العنف، لكنّي ألقيت اللوم على السلطة الدنماركيّة بعد ان عرفت الحقيقة. هناك لاجؤون قضوا في الصليب مدة عام من دون ان يستلموا أيّ جواب بالرفض أو القبول. تساءلت ماذا يحدث لي لو بقيت في هذا المكان سنة أو أكثر أتناول طعامي وفق جدول روتيني، ولا أملك أيّ نقودٍ في جيبي!!

ظننت انّ معركة اليوم إنتهت لاسيما أنّ الشرطة غادروا السفينة الى الرصيف تصحبهم كلابهم المدّربة. في هذه اللحظات اندفع أحد المراهقين باتجاه الباب الرئيسي. أطلق صرخة غليظة وهتف(bomb) ، ثم رمى شيئاً ما بيده أسفل السلم. ارتدّ الشرطة الى السفينة، ليحتموا بمصراع الباب، وكان اللاجىء يضحك ساخراً فلم تكن القنبلة المزعومة سوى صخرة محزّزة... وعلى الرغم من كلّ ما حدث فقد حافظ الشرطة على برودة أعصابهم، في حين لوّح بعضهم الى اللاجئين بأيديهم مودّعين. كنت أظن برودهم، نتيجة للجو البارد الذي أثّر في أعصابهم، وعندما سألت موظف الاستعلامات أجابني أنّ الشرطة في حالات كثيرة يتجاهلون ما يفعله اللاجئون لأنّهم يعدّون سلوك الشرقيين

نوعاً من شعورهم بحرية فقدوها، الحالة، كما يقول، تشبه سجيناً يطلق سراحه فلا يحسّ للوهلة الأولى بالبرد خارج السجن، حتّى اذا تأكّد من كونه حرّاً بدأ يتصرّف كما يتصرّف الانسان السوي.

- أرجو ألا أتصرّف بعنف ضدّ شخص دنماركي دعاني الى تناول العشاء معه الليلة.

قلت العبارة السابقة، حالما عاد الهدوء النسبيّ ثانية، وأنا أحكي لموظّف الاستعلامات قصّة لقائي بـ"بغيبن" وخشيتي من ان يكون احد الشاذين، فقال إنّه ليس متأكّداً تماماً، ولا يستطيع ان يبتّ بالموضوع. سيوضّح للدنماركي أنّ أمراً كالشذوذ الجنسيّ يعدّ عيباً في مجتمعنا، فإذا تحقق من الامر طرده، ولعلّه يكون انساناً سويّاً، لأنّ بعض الدنماركيين يحبّون التعرّف بالاجانب واللقاء معهم لمجرّد الصداقة.

على أيّة حال اطمأن قلبي تماماً. انصرفت الى غرفتي في الطابق الاسفل، وحاولت النوم أو القراءة. ضاعت محاولتي عبثاً. الساعة الآن الثانية وبيني والعشاء خمس ساعات على الأقّل، لكنّي لم أدر كيف تسلل النوم الى عينيّ وغلب الجوع.

الساعة الخامسة بالضبط سمعت نداء برقمي. صعدت الى الاستعلامات. انفرد بي الموظف وطمأنني إلى أنّه تحدث مع "بغيبن" فعرف أنّه يحبّ الشرقيين، ويرغب في مساعدتي فقط.

وجدته ينتظر قرب الباب وبيده كيس قدّمه اليّ وهو يعقّب:

- قد لا يبدو المعطف مناسباً لحجمك بالضبط فهو من ملابسي الجديدة.

لم يكن شكل المعطف يهمّني بقدر ما كنت أرغب في الهرب من البرد بأيّة وسيلة:

- لا يبدو ناشزاً على أيّة حال!

هزّ كتفيه وقال بابتسامة:

- هنا في الدنمارك لا أحد يثق بإثنين: الجوّ والنساء.

سمعتُ بعضاً من حياته خلال الطريق تكلّم طوال الوقت عن نفسه وأسرته. والدته في السبعين تعيش وحدها، وتعاني من أمراض مختلفة من المحتمل ان تكون الآلام الاخيرة إلتهاب مفاصل. والده توفي في الثامنة والستين، أما هو فيعمل كاتب استعلامات في المستشفى المركزي. هوايته السفر. قبل سنين زار شمال افريقيا، وفي تونس تعرّف بشاب دعاه الى منزله، فعاش مع الاسرة من غير أن يدفع أجر إقامته. ربّما كان الحادث سبباً لتعاطفه مع الشرقيين، وفق تصوري، غيرأنّ صداقته للعرب لاتعني تأييده لأيّ صراع بين العرب أنفسهم، أو بين العرب واسرائيل.

كنّا نستقل الحافلة عندما توقف عن الكلام، فالتقطت فرصة أعبّر بها عن احتجاجي:

- ماذا تفعل لو اقتحم فجأة مسلحُّون بلدك واستولوا على شقتك!

نظر اليّ بلا مبالاة وعقّب:

- أتظن ذلك لم يحدث؟ ماذا عن الحرب العالمية الثانية؟ حين اقتحم الالمان البلد حمل معظم الدنماركيين أمتعتهم واستعدوا للهجرة، فلا ضرر ان نعيش في امريكا أو اسبانيا، مسؤولية كلّ واحد ان يجد بيتاً يؤويه، لأنّ الحياة أهمّ شيء في الوجود، وأنت لن تحيا مرتين!!

سألته مستغرباً:

- ماذا عن المقاومة.

- لم تكن لتشكل الا ١٪ من الدنماركيين.

خيّل اليّ ان هناك هوّة واسعة تفصلنا عن الاسكندنافيين، هناك في آسيا حيث المدّ البشريّ الهائل، تشكل لك الروح بكلّ غموضها قيماً واضحةً يصعب عليك التخلي عنها. تذكرت أن جدّي وأصدقاءه كانوا يرجعون الاباحيّة والجنس في اوربا الى لحم الخنزير، ويضيفون الى مساوىء ذلك الحيوان البشع صفة أخرى: انّه يطرد الغيرة من جسم الانسان. هنا كلّ شيء مقلوب تماماً... نحن نكتب من اليمين الى اليسار، والشمس تشرق عندنا. كلّ شيء مختلف وفق ما يتصوره جدّي.. قد يكون اللقاء مستحيلاً

بعض الاحيان. أقنعت نفسي بأنّ أجدادنا لم يكونوا مرغمين على أيّ لقاء حيث عاشوا صراعاً جديّاً مع اوربا حول فلسطين والجزائر فكانت لغة العنف العامل المشترك بينهم وبين الاوربيين، اما نحن فاضطررنا الى اللقاء بصيغ مختلفة منها الهجرة واللجوء، وربّما من الأفضل لي أن أجعل الاوروبي محايداً كما هي علاقتي بـ"بغيبن" الآن.

كانت شقته تتكون من صالة استقبال وغرفة نوم، قلت وأنا ألتقط أنفاسي بعد ان إستهلك قواي الدرج:

- مكانك جميل ينقصه المصعد فقط.

- معظم العمارات قديمة يرجع بناؤها الى بداية القرن العشرين.

ثمّ عاد من المطبخ كأنّه يؤكدّ كلامه في الحافلة:

- أرأيت كيف أننا حافظنا على مدينتنا خلال الحرب الثانية؟ ماذا تتوقع لو قاومنا هتلر مثل البولنديين؟

كأنّه وجد في صمتي معيناً له على حماسته فاسترسل:

- ستجد بالتأكيد غابات من الاسمنت حديثة الطراز لاطعم فيها، لكننا كنّا أذكياء فتركنا غيرنا يحارب هتلر.

حاولت ألا أقاطعه، فها أنا منذ اللقاء الثاني اكتشف عمق الهوّة في نمط التفكير بيني وبينه. الأرض. الكرامة. كلمتان ليستا في

قاموسه، وحياة الانسان على الارض، حسب تصوّره، أفضل منهما. ليس من السهل ان أتجرّد عن فكرة تعلمتها وأنا صغير. فضلت ان أغيرّ الحديث الى موضوع آخر. قلت وأنا ألفت انتباهه الى صور الغرفة:

- إنّها صور رائعة.

أشرت الى لوحة زيتيّة عبّر فيها الرسّام عن شارع خال وعاصفة، لاشيء عدا ذلك غير ورقة ذابلة تسقط من شجرة جرداء. كما يقول، للمنظر قصّة، ترجع الى سبع سنوات مضت. كان في أسبانيا، فتعرف من باب المصادفة على رسام إشترى منه لوحتين: واحدة باعها يوم أفلس بسعر غال، وبقيت الثانية تزيّن الجدار. تابعت مشهد الصور، حتّى إستقرت عيناي على صورة قال إنّها لجدّه وجدّته، أمّا الصورة التي تواجه المكتبة الصغيرة فهي لأمّه مع زوجها الأول. جذبتني الصورة اليها، فقد رأيت امّه على درجة من الأناقة والجمال. إستطعت ان أتبيّن ترف العائلة من خلال صورة الام وزوجها الأول، لكنّ ما أثار استغرابي بصفتي شرقيّاً غياب صورة الاب.

عاد يحمل زجاجة بيرة، ووعاء شاي، وكنت ما أزال أمعن في صورة امّه وزوجها الاول:

- لو لم تقل لي لظننته أباك.

رشف جرعة من البيرة، وقال:

- أنا لا أكرهه لكني لاأحبّه.

واستطرد يحدّثني عنه:

- كان يشتغل في معمل البيرة. هناك حيث يشرب من دون أن يدفع شيئاً، فيأتي كلّ يوم الى البيت سكران. لم تربطني به علاقة طوال حياتي معه، لكنّ أمّي امرأة لطيفة. ما رأيك أن نزورها أحد الايام؟

- لامانع عندي لكني لا أعرف متى ستقرّ السلطة لجوئي لأبقى في كوبنهاغن أو أنتقل الى محافظة أخرى.

- سنحدد مواعيد أوليـة، فاذا ظهر شيء مخالف غيّرنا البرنامج.

رفع سماعة التلفون وتحدّث بلغة لا أعرفها، ثم التفت اليّ:

- سنزورها يوم السبت القادم.

لم اكن لأهتم، فالأيام عندي سواء. أصحو الساعة السابعة. أتناول فطوري ثم اخرج الى الشارع أو أنصرف الى غرفتي، واحضر الغداء الساعة الثانية عشرة، لأتابع أخباراً أتلهف اليها. متى يصدر قرار البرلمان بكوني لاجئاً. تلك اللحظة السعيدة التي ينتظرها الجميع. أول يوم دخلت فيه السفينة أبصرت عرباً يحيطون

بشاب، ويزغزدون مبروك، كانوا يعانقونه من كلّ اعماقهم. لقد ظهرت نتيجة لجوئه!!

هكذا كانوا يتحدّثون، وكان "بغيبن" يعقّب على شعوري بالملل والانتظار بخفّة روحه المعتادة:

لاشيء أفضل من ان تأكل وتشرب وتنام. قل لي هل يقبلونني لاجئاً معكم؟

اتفقنا على أن نزورامّه الساعة الواحدة. نتناول الطعام معها، ثم ينصرف الى شقّة صديقته ليذهبا الى المرقص (الديسكو) الساعة السابعة.

- ما رأيك لو تأتي معنا؟

- ماذا عن الرقص؟

التقط عصا قرب الباب ورفعها فوق رأسه. تذكّر شيئاً ما نسيه، فخطا نحو المسجّل وقلّب بين الاشرطة. اختار أحدها، فانبعث من الجهاز موسيقى لقطر من شمال افريقيا. اخذ يرقص على انغامها منسجماً مع صوت الطبل الفخم، ثمّ توقف عن الرقص والتفت اليّ:

- هذا هو رقصكم. تعلمته خلال سفرتي الى تونس. فيه بعض الصعوبة، أما هنا فلا أحد يراقبك حين تبدأ الموسيقى. بهذه الطريقة تجد صديقة قد تكون بأمسّ الحاجة اليها.

كانت عبارته الاخيرة حافزاً لي لكي أوافق على اقتراحه، لكنّ المرقص ودعوة الام، والصديقة التي أنا بأمسّ الحاجة اليها، كلّ هذه الامور، لم تنسني الجوع لاسيّما أنّي فقدت غدائي اليوم. تطلعت في ساعة الحائط وأطلت النظر اليها. وجدتها تشير الى السادسة. كان ذكيّاً في فهم تصرّفي. اعتذرت بلهجة لبقة:

- الآن أصحاب السفينة يقفون بانتظار الطعام.

غادر الى المطبخ، وعلّق حين قدم يحمل أواني الطعام:

- عملت لكَ سمكاً كي لا تظنّ انّي.....

قاطعته: لابأس فأنا احبّ السمك.

تحاشى ان يجرح مشاعري، فقال بابتسامة واسعة:

- الذي يثير استغرابي هو تناقضكم انتم الشرقيين، لأنكم تتبعون انصاف الأشياء.

- ربّما نصف الشيء هو الحقيقة.

اعترض مستغرباً:

- الفلسفة تدعو الى الجنون.

- العالم كلّه مجنون.

- اعتقد، أنكم العرب، أشدّ جنوناً، وأنا أحبّ المجانين.

- هل اكتشفت ذلك خلال زيارتك لشمال افريقيا؟

اعترض على سؤالي:

- تأكدّ لي ذلك خلال ثلاث زيارات وليست واحدة لكنني اكتشفته من قبل، عندما قرأت القرآن بالدنماركية، فعرفت انّه يمنعكم من أكل الخنزير وشرب المشروبات والزنا وأمور كثيرة.. بعضكم لا يأكل الخنزير لكنّه يشرب الكحول، ويعاشر النساء، وبعضكم لا يأكل الخنزير ولا يشرب، ويعاشر النساء فقط.

كيف أنقذ نفسي من التناقض المحيط بي. عدت الى النقطة التي بدأت منها، بعد ان تناولت لقمة صغيرة:

- احياناً لا تملك القدرة على تمثّل الحقيقة كلّها، فيدفعك الامر الى اعتناق نصف الحقيقة لأكثر.

- مثل الخنزير والنساء والخمر.

الحقيقة لم أجد تعليلاً لنفوري من الخنزير غير الغيرة التي سمعتها من جدّي، فكلاهما وفق الدين حرام: الخنزير والخمر، لكنّ مجتمعنا لا يقرف من السكّير بدرجة نفوره ممن يأكل لحم الخنزير، هو المجتمع ذاته الذي يرفض الزنا، ولا يتقزز من شخص يقترفه بدرجة نظرته الى من يأكل لحم الخنزير. لا مجال من الوقوع في التناقض ولا منفذ أمامي إلا أن أعتبر أنّ إنصاف الحقائق قد تكفي لان تكون هي الحقائق نفسها في بعض الاحيان.

صمت ولم يعلّق. كان قد انتهى من زجاجته الرابعة أو الخامسة، وحين خيّم صمت عميق، أدار مفتاح المسجل ، فانبعثت موسيقى كلاسيكيّة هادئة بعثت شيئاً من الراحة والهدوء في نفسي، مما جعلني أنسى السفينة وصخبها،وعناء يوم مثقل بالضجة والعراك. حاولت أن أنسى تماماً، على الرغم من ثرثرة مضيفي الذي نسي نفسه فراح يتحدث و يهذي وأنا أهزّ رأسي كأنني أصغي اليه ،والحقيقة أنّي كنت غائباً عمّا يقوله ...وربّما جمح بي الخيال الى خارج الغرفة الدافئة والسفينة الى حيث لا أدري ...الى مكان ما لا أعرفه أنا نفسي ولا أدرك أبعاده بالضبط.

- ٣ -

في أثناء طريقي الى الصالة قبل الغداء ، استوقفني موظّف الاستعلامات وطلب منّي مساعدة شاب عربيّ في مسألة ترجمة .كان في العشرين من العمر طويل الوجه يميل الى النحافة ، يطلق عليه أهل السفينة كنية (أبو الوداد) اخبرني أنّه اشترى معطفاً قبل يوم من (الفوتيكس)، إلا انّه يرغب في ان يرجعه. قال انّه لم يتوقّع ان يحصل على معطف آخر، فتعجّل ودفع مبلغاً ليس قليلاً من المال. كان عليّ ان أفهم ظروفه على الرغم من عزلتي وتجاهلي للشرقيين. جلسنا متقابلين على مائدة واحدة. حدّثني عن نفسه ومخاطرته في الوصول الى الدنمارك، وكيف قضى سنة في السفينة من دون ان يبتّ البرلمان بأمره. كان يتكلّم بحماس وانفعال. يسبّ ويهدد ويشتم. للمرة الاولى ادركت سبب شجار اللاجئين. بعضهم يقضي أكثر من سنة، والكثيرون يجهلون لِمَ لمْ يقرّ البرلمان حقّهم في اللجوء لحدّ الآن. خمّنت النتيجة سلفاً، فيما اذا بقيت فترة طويلة وأنا معلّق بأمل لا أعرفه. سوف يدفعني اليأس الى سلوك احتمالات مختلفة. قد اضطرّ الى السرقة، وربّما أكون عصبيّاً. كان

يقول انّه ترك امّه وثلاث أخواتٍ على أمل ان يأتي الى هنا، فيستطيع مساعدتهنّ، وها هو ينتظر أكثر من سنة، لو أنّه رفع كأساً من على المنضدة، وطوّحه في الهواء، أو قلب منضدة الطعام لما حقّ لأحد ان يلومه.

أنصتّ اليه وعيناي تتابعان الشعارات التي رسمها اللاجئون على الجدران، ولوّثوا بها الكراسي، وأثاث الصالة. اينما ذهبنا نحن العرب فلا نستطيع ان نتخلّى عن شعاراتنا وانفعالاتنا الوقتية. رضعنا الانفعال والشعارات ونحن صغار.. يسقط فلان.. يعيش فلان و.. و.. الشاب (ابو الوداد) يجلس على كرسيّ مقابل يحدّثني بانفعال، فأراه واحداً من شعارات كثيرة مطروحة تحيط بي فتسدّ عليّ الطريق، ولم أجد وسيلة الا الهرب منها باتّجاه الثلج، لكنّ جلوسي مع (ابو الوداد) حول مائدة واحدة يعيدني من جديد الى ماض قريب حلمت بأن أتحرر منه. لقد سمعت وأنا في آخر عاصمة عربية اتخذتها منطلقاً للهجرة انّ من الافضل أن أتحاشى الشرقيين تجنباً لمشاكل تؤخّر اقامتي. لذلك طلبت غرفة نوم منفردة حالما وصلت الى السفينة. ادّعيت أنّي أسير في النوم، وأتكلّم، صدقني الموظف واختار غرفة صغيرة تقع بالقرب من مدخل الطابق الأسفل. الامر لا يخلو، مع كل التحفّظ السابق من مضايقات. أحياناً يضطرّ موظف الاستعلامات الى النداء عليّ لأترجم له بعض الشكاوى، وأحياناً اكتشف أنّي استدعيت لأمر تافه، مثلما حدث

يوم أمس: ليس هناك من شيء ضروري سوى انّ سيدة تقترح على موظّف الاستعلامات انّ الثوم الذي يتجاهلونه هو ضروريّ في وجبات الطعام.

غير انّ لقائي اليوم كان أطول لقاء، كاد يجرّني الى مشكلة متشابكة. فقد غادرنا السفينة بعد الغداء مباشرة. وطوال الطريق حدّثني (أبو الوداد عن النساء وسألني ونحن على رصيف النهر:

- لِمَ لاتستغلّ معرفتك باللغة الانكليزية.

تأملت في اقتراحه، وسألته:

- هل تعني ان أطلب أجوراً من الصليب مقابل مساعدتي لبعض العرب في الترجمة.

- كلا ابداً. أنت خريج جامعة تفهم الامور من الاشارة.

- لم أفهم قصدك لحدّ الآن.

قال شبه متردد أو ربّما اختلج في نفسه الخجل بالتردد:

- تستطيعَ ان تجد صديقة أكبر من عمرك قليلاً توفّر عليك كثيراً من المتاعب المالية.

ابتسمت أجاريه:

- هل وجدت مثل هذه المرأة أنت؟

- أنا صغير السنّ والاهم أنّي لا أتحدّث الا العربية فقط.

- لكنّ الذي يشغل ذهني هو الاقامة الآن!

ربّما كان إقتراحه صحيحاً. لن أشعر بتأنيب ضمير سوى أسفي فقط على إنسانة استغليتها، لكن احساساً بأن أكون مصاص دماء يدفعني الى الغثيان.

- لعلّي أشعر بالندم بعدئذ لكوني أصبحت مصاص دماء(Vampier)

- لاتتردّد اذا صحّت لك مثل هذه الفرصة، فهؤلاء هم الـVampier.

لم تكن فكرتي عن آوروبا لتتعارض مع تصوّره. تعلّمنا في المدارس وأخبرنا أهلنا ونحن صغار انّ الاوربيين قتلوا منّا مليوني ضحية في الجزائر، وساعدوا اليهود على اغتصاب فلسطين، والآن يتصدقون علينا بمبلغ من الكرونات. مسكت (أبو الوداد) من ذراعه لأؤكّد له انّي أحمل الشعور ذاته، لكنّي أفتقد الى الجرأة الكافية في تنفيذه. اجتزنا الرصيف المقابل، وكان يقهقه، ويعقّب:

- أنت لا تدري لانّك جديد هنا، حين يمسك رجلان أحدهما بذراع الآخر فهذا يعني انّهما لوطيّان.

- اعتقد انهم يعرفون من خلال وسائل الاعلام أن للشعوب عاداتٍ قد تختلف عنهم أتظن أنهم لم يروا الرئيس الروسي

والامريكي يسيران و كلّ منهما يمسك بذراع الآخر ؟

- في هذه الحالة سيصبح العالم هو....

دلفنا من باب عريض ،وصعدنا عبر درج كهربائي الى الطابق الرابع ، فتوجّهت الى البائع وبيدي وصل الشراء . تحدثت معه حول المسألة بدّقة و تفصيل ، و لم أكد أتمّ كلامي حتّى اتصل بجهاز صغير مع آخرين ، وخلال لحظات قليلة ، أحاطتنا مجموعة من موظّفي المحلّ...عيون شبقة تنظرالينا ...جهاز في السقف يطلق صوتاً مثل صفارة إنذار تحذر من غارة، وعن بعد إحتشد الناس يراقبون المشهد .. ثم اقتادتنا المجموعةالى غرفة ضيقة خلف الممر المفضي الى المصعد .

رفع (أبو الوداد) نظراته اليّ ،و قال :

اكتشفوني أولاد....

لو لم يحدّثني عن أمّه و أخواته ، و انتظارهنّ له ، لفقدت القدرة على التحكّم بنفسي ،وهجمت عليه. علامة استفهام توشك ان ترتسم على ملفّي الشخصي، من الممكن ان تؤخّر الاقامة. قرأت في وجهه نظرة أسف لا لأنه خَدَعني، بل لكونه أخفق في موضوع سرقته.كانت خطته محكمة الى درجة، المعطف الذي اشتراه بقي في السفينة، وحمل كيساً فارغاً دسّ فيه واحداً آخر من المحل.

- اسمع (كان يتحدّث بصورة طبيعية فلم يبد عليه ارتباك): لا خوف عليك لأنّك جئت تترجم لي.لايهمّني ان يفعلوا أيّ شيء معي. سيتحمل الصليب الاحمر نفقات الغرامة (ثمّ اردف بنكتة بلهاء) عشرون سرقة ناجحة وواحدة لا.

قلت اغالب غضبي:

- لكنّ امّك ستغضب منك!!

-أفضل ان اطعمها من الحرام على ان تموت جوعاً.

قال عبارته السابقة بحماس، ففقدت السيطرة على غضبي، وصحت به:

- وما ذنبي أنا؟

خيّم أسف على قسماته، فخيّل اليّ أنّه يهمّ بالبكاء. نظر الى الأرض، وربّما كان يبحث عن شيء يغالب به دموعه. طردت من ذهني ايّة فكرة سوداء عنه، وغسلت قلبي من الغضب والنفور. كانت السنوات التي تفصل بيننا كافية لتزرع في نفسي شعور الاخ الاكبر، أو الأب تجاهه، تيقنت انّ اللحظات الحرجة، ساعة اكتشاف السرقة، لا بدّ ستنمحي من ذاكرتي، وسينسى صاحب المحل والناس الذين أحاطوا بنا، لكنّ(ابوالوداد) سيظلّ يذكرني، ويدرك تماماً أني تأثّرت تماماً لأمّه وأخواته.

انفتح الباب ثانية، فدخل ثلاثة شرطة رافقونا بالسيارة الى مركز

التحقيق. رفضت ان اتكلّم إلا بحضور ممثّل الصليب، فتأكّد لي بعدئذ انّ المحقق اتّصل بالهاتف، وعرف أنّي قدمت مترجماً فقط، فأطلق سراحي وبقي (ابوالوداد) قيد التحقيق.

الصدمة جعلتني أعرض عن العشاء تلك الليلة. كنت اخشى ان يتضمّن ملفّي الشخصي نقطة سوداء تثير تحفظ وزارة العدل التي لابدّ من ان تبدي رأيها حول ايّ طالب لجوء. اسوأ الاحتمالات ان أتخيّل نفسي ضائعاً لا أعرف مصيري مثل كثير من اللاجئين، ولا شيء سوى ان اتناول ثلاث وجبات يومياً بأوقات معينة، ثمّ اقطع الشارع ذهاباً واياباً أو ارسم شعاراً كئيباً على منضدة ما أو باب مرحاض. لاشيء يرتسم أمامي بعد الحادثة سوى ملل يدفعني الى السرقة، أو افتعال شجار لأيّ سبب تافه.

موظف الاستعلامات أكّد لي انّ الشرطة تجاوزت عن تسجيل أيّة علامة مريبة بشأني، فقد أدركوا منه ملابسات المسألة. لم أحقد على (ابو الوداد) لانّه خدعني. كان حديثه عن امّه واخواته يبعث في داخلي تعاطفاً معه. عشرون سرقة ناجحة قبل هذه، حصيلتها بعض الدولارات بعثتها الى أمّي... غير انّ لحظة الانقضاض علينا من موظفين يحملون اجهزة اللاسلكي، ويتحدّثون مع كلّ نقاط الطوارىء في المحل الكبير، ثمّ عيون الناس، وهي تلاحقنا، وكأننا أسرى حرب.. كلّ هذا المشهد السريع يعيدني الى اللحظات الحرجة التي عشتها عصر هذا اليوم. لصّ تتطلّع اليه الانظار. اثنان

من الشرق جاءا ليسرقا، فاكتشفهما جهاز التصوير.

انتفضت لطرقات خفيفة على الباب انتشلتني من افكاري. كان القادم (ابوالوداد) نفسه. قاطعني وهو يشدّ على يدي:

- لم أبق اكثر من اربع ساعات..

ثمّ جلس على حافة السرير، وواصل:

- هل تظنّ اننا في الشرق؟

سألته والدهشة تعقد لساني:

- ماذا قرروا بشأنك؟

- سيتحمل الصليب العقوبة لأنني لا املك مالاً.

ما زلت صامتاً، وكان يواصل:

- العقوبة القصوى هنا هي للقتل مدتها عشر سنوات وتخفف الى نصف المدّة اذا ابدى المجرم سلوكاً حسناً داخل السجن!!

- أرجو ألا تضطرّ الى ذلك يوماً ما!

فقال وهو يبتسم بمرارة:

- قد ألجأ الى ذلك لكنْ ليس هنا!!

لم يكن أمامي الا ان استسلم للواقع الراهن، فبعض العيوب آخذة في الظهور يوماً بعد يوم. هناك في الشرق على الرغم من

المساوىء وأنظمة القمع والانتهاكات والحروب، يشعر الانسان في بعض الحالات أنّ حقّه لن يذهب هدراً ما دام ينتسب الى عائلة. كنت اكره العشائر، وأعدّ التفكير وفق انظمتها نوعاً من الوزر ورثناه عن العصر الجاهلي. هذه اللحظة وجدتني اندفع نحو النقيض. ماذا لو قتلت داخل بلدي خلال شجار غير سياسي. سوف لن يعيش المجرم طليقاً. هناك العشرات من اقاربي يطلبون دمي، اما هنا فيقضي المجرم خمس سنوات في سجن أشبه بالفندق. تلفزيون، راديو، حمّام... صديقة تزوره مرة بالاسبوع... عالم غريب يكاد يرجعني الى كلّ فكرة رفضتها، اما (ابوالوداد) فكان يتحدث وعلامات اللامبالاة تلوح على وجهه. كان يؤكّد، وكأنّ شيئاً لم يحدث:

- لاتفكر بالموضوع فلن يشكّل حدث اليوم عقوبة لك.

ثمّ نهض وأردف:

- فاتني وقت العشاء اذ كنت في التحقيق. سأقلب الدنيا على رؤوسهم ان لم....

فقلت محذراً خشية من ان يتصرف ايّ تصرّف أهوج:

- لديّ بعض الخبز والجبن احتفظت به من الفطور.

كان يخطو خارج الغرفة، كأنّ كلامي استفزّه:

- سآخذ حقّي أفضل من ان يسرقوه!!

- ٤ -

سأقابل سيدة قدمت الى القرن العشرين عبر ثلاثة آلاف سنة. هكذا كان "بغيبن" يحدّثني ونحن نستقلّ السيارة. خلت أن لوثة أصابت امّه. راودني بعض القلق وسرعان ما تذكرت أنّ المجانين الدنماركيين لا يؤذون. أقصى ما يفعلونه ان يعلّقوا على صدورهم أوسمة وأعلاماً، او يتطرف من يحتفظ بنصف عقله ليطلب منك سجارة، وربّما يقدم اليك زجاجة بيرة...

لكنّه سألني جاداً: أتؤمن بذلك؟

- الجنون؟

- أتسمّي تناسخ الارواح جنوناً؟

أعتذرت عن غلط لم أتعمّده، قلت أغطّي على تسرّعي:

- هناك بعض المسلمين يعتنقون هذه الفلسفة.

-أمي تظنّ أنها كانت وصيفة كليوباتره.

وقفت سيارة الاجرة، مقابل عمارة من ثلاثة طوابق. كانت أمّه

تسكن احدى شقق العمارة الارضيّة. بدت شقّتها أشبه بـ(فلاّ) تحيطها من جانب المدخل الرئيسى حديقة واسعة إشتملت جهتها اليمنى القريبة لسياج الورود على أراجيح للاطفال.

عاد الى مرحه، حين ضغط على الجرس، إذ تأخّرت أمّه قليلاً في فتح الباب:

- ربّما هي الآن تبول!!

بدت لي ملامحها واهية لا يربطها أيّ شبه قريب بالصورة التي رأيتها في غرفته كأنّ الزمن سرى كالسمّ في جسدها. تجاعيد وجهها بدت لي كالغسق الذي إنحسر جزره فلم يخلف سوى ملامح لظلال واهية، غير أنّ عينيها ظلتا تتمتّعان بنكهة ذكيّة وعفوية ورثتها عبر ايام الِصبا. كانت امرأة في السبعين أو اكثر . لم تستطع الاصباغ ولا البودرة ان تمحو تجاعيد وجهها، وربّما بدت مثقلة بسنين طويلة كادت تميل بقامتها نحو الارض.

رحّبت بي ترحيباً عفوياً، اكتشفته في رقّة عينيها. تحاشت أن تفتعل أيّة لغة مصطنعة، كما يفعل المضيّف مع ضيفه. امرأة صريحة تحمل طيبة القرويين الدنماركيين:

- أنت..... الذي حدّثني عنك "بغيبن" في التلفون. اسمٌ جميل، بعض الاحيان تختلط عليك أسماء العرب، فمعظمهم يسمّون محمد وعبدالله، لكنّ اسمك سيعلق بذهني.

- لا تنسي أنّ جدّي اسمه محمد!!

قد تكون السيدة "يانسن" اكثر لباقة من ابنها. ذلك ما استنتجته من أول لقاء. لم نكد نجلس حتّى حدّثتني عن حياتها السابقة. أحضرت بدلة بيضاء وقالت يؤسفها أنّها لم ترَ العراق لكنّها تعرف علاء الدين والسندباد، امّا هذه البدلة فقد اشترتها من مصر، الدولة العربية الوحيدة التي زارتها، وهي شبيهة لبدلة هربت بها ساعة اقتحام العدوّ لقصر سيدتها. إنّها هي بالضبط هي هي. الزمن عجز عن ان يمحوها، لذلك ترتديها كلّ ليلة لتقابل سيدتها.

لاحظت ان "بغيبن" ظلّ صامتاً طول الحديث . هي المرة الاولى التي أراه يرضخ فيها للصمت. قلت:

- ماذا تقول انت؟

- انا لاأفكّر بحياتي الماضية، بل بما سأكون عليه في المستقبل.

أجبته بفضول:

- الفراشة أجمل مخلوق!!

اعترض ساخراً:

- انها تعيش حياة قصيرة، سأختار حيواناً يعيش عمراً أطول من غيره.

وعقبت الام باهتمام: إنّه الفيل.

أكدّت بالنفي: بل السلحفاة!

لكنّها عادت الى الحديث عن نفسها:

- بعض الناس، المعارف خاصة، يتهمونني بالمبالغة. لو كنت أبالغ لقلت عن نفسي أنّي كنت كليوباترة نفسها.

إلتقطت انفاسها، ونفثت موجة سعال خفيفة:

- ثم هناك دليل آخر... ماذا تعتقد كان أعظم حدث في حياة كليوباترة؟

استغرقتني لحظة تفكير. حاولت ان أحْزر:

- لعلّه سمّ الافعى.

- أيّ سمّ هذا (كانت علامة السخرية ترتسم بسيماء الجدية والتوكيد في عينيها) ألا تعتقد أنّ العامل الحاسم كان السفن؟

قلت في حيرة:

- لم أفهم قصدك بعد (وخاطبت نفسي بسخرية): هذه المرأة تحاول ان ترجعني الى سفينة نوح البغيضة التي وضعوني فيها من دون طوفان!!

- السفن. المعركة الحربيّة.. الاسطول المدمر.. أمّا ميلادي فكان سنة ١٩١٢ في اليوم الخامس عشر من الشهر الرابع وهو يوم غرق السفينة المسمّاة تيتانك. أنّه حدث هزّ العالم، وذلك دلالة على

صحة كلامي.

يبدو انّ "بغيبن" ضجر من حديث أمّه، فإنصرف الى المطبخ وعاد يحمل زجاجة بيرة. تحدّثا قليلاً بالدنماركيّة، واذ أنهيت فنجان القهوة، طلبت الامّ ان أصحبها إلى المكتبة في الغرفة المجاورة. كانت مكتبة لابأس بها،صفّت كتبها على رفوف، وحجزت بين الرفّ والآخر بعض التماثيل والقطع الحجريّة والمنحوتات الفرعونية القديمة. سحبت من المكتبة كتاباً ضخماً، وقالت وهي تبتسم:

- ألف ليلة وليلة. ليس هناك دنماركيّ لم يقرأها.

في هذه الاثناء ، إعترتني غبطة وأسف. أحسست بأنّ السندباد يستمرّ في مطاردته لي. السندباد في كلّ مكان... السحّر والجنّ والعفاريت والحكام... الفتنة والمغامرة كلّها تلحق بي الى مدينة الثلج والعواطف الباردة. غزو تاريخي يعترضني أينما رحلت، فأكاد أفيق على كابوس أراه يتمثّل في عشرات المهاجرين الى كوبنهاغن يتجمعّون ويحيطون بي. السندباد في كلّ مكان، حزن، وفخر بالوقت نفسه، مع كلّ خوفي شعرت بفخر عظيم وأنا أقف أمام السيدة"هانسن" لأنني نسيت خلال خطراتٍ سريعة، وانا اعدّ نفسي إبناً من أبناء الشرق، نسيت مساوىء السندباد، وسيف هارون الرشيد،لأنّ السندباد أعجبني حين تجاوز عصره الى كلّ العصور.

- هل قرأت السندباد؟

هزّة رأسي لاتدل على إمتعاضي، لكنّها تكفي للاجابة عن سؤالها الساذج، وقالت وهي تصحبني الى غرفة النوم: هذا هو سرير الوصيفة. كان كلّ ما في البيت مستوحى من التاريخ الفرعوني القديم. غرفة الاستقبال المغطاة بناموسيّة ورديّة شفافة، خزانة الملابس الضخمة، حيث وضعت على شمّاعة تذكارية بدلة النوم البيضاء الواسعة، وعلى الحائط فوق السرير صورة كليوباترة، تمسك بمجموعة من الافاعي، وتلفّ على رقبتها أفعى يتدلّى ذيلها كالضفيرة على صدر الملكة.

صورة واحدة لسيدتك الملكة فقط؟

بابتسامة يغلفها أسف:

- في ذلك الزمان إحتلّ الغزاة مصر.. هاجموا القصر ونهبوه، ما عدا هذه الصورة. أخفيتها تحت ثيابي ثمّ تسللت من الباب الخلفي...

كنتِ تخفين الصورة لتهربي الى عصرنا، تجتازين المسافات الزمنية، حتّى وصلت الى هنا مثلي بالضبط، ليس من المعقول ان أصرّح لها عمّا يجول بذهني، فكلانا لاجىء؛ كيف أتهمها بالجنون، والانفصام، وقد إجتزت أنا نفسي مسافات وإختصرت أياماً فوصلت الى كوبنهاغن؟ لايحقّ لي ان أصدّق نفسي،

وأكذِّب انساناً عاش الظروف نفسها لكونه يشترك معي في كلّ شيء عدا عامل الزمن. الزمن لايهمّ على الاطلاق، فأنا اختصرت المسافة ببضعة ايّام وهي اجتازتها بمئات السنين.

- كان ذلك الزمن عظيماً. خدمه أفضل من ملوك الآن!

ليست العبارة السابقة من إبتكاري، بل سمعتها من جدّتي ذات يوم. كانت تقول انّ ملوكنا في السابق تبدو النعمة والجلالة على سيمائهم، أما زعماؤنا الحاليون، فوجوههم تنقصها الجلالة والمهابة كأنّهم يعيشون بملامح لا طعم فيها. لقد تغيَّروا مثلما تغيّرت السجائر والاطعمة وملابس الناس!!

إرتاحت لعبارتي السابقة، ثمّ بان الانزعاج على وجهها:

- هذا حسن، لكنّ معظم الناس يعتقدون - كما تظنّ انت - أنّ الاصيل يرجع الى القرن الذي سبق القرن العشرين بعد ان إكتسحت الالة الطبيعة، لكنّ لي رأياً مخالفاً، فأنا أرى انّ الحضارة المصطنعة اكتسحت العالم يوم انحسر عصر الوثنيّة.

وأنا أكتم انزعاجاً:

ليس من المنطقي ان يؤمن الانسان بحجر يعبده، او ظاهرة طبيعية كالقمر مثلاً.

إعترضت بانفعال:

- اتظنّ أنّ القمر كان مثل قمرنا الآن؟ لقد كان أجمل بكثير، يبتسم ويضحك ويرقص حتّى جاءت الديانات التوحيديّة، فتغيرّ شكل القمر ووقع الناس في خلاف.

على الرغم من سعة إطلاعها، وحماسها للشرق الذي أوقعها في حال تشبه الانفصام، فقد كانت تجهل كلّ شيء، وتفهم افريقيا بنظرة وثنيّة خيّمت على روحها. كانت تنتقد حروب الدول الآوروبية، ويثيرها صراع الهنود والسيخ، والعرب واليهود، غير أنّي مهما اؤتيت من صبر، وبرود أعصاب، فإنني لا أستطيع ان أكتم احتجاجي على فكرة اعتقدها خطأ من الاساس، فوجدتني اندفع محتجاً، وربّما وجدت في اندفاعي فرصة لتلقط نفسها:

- هتلر هاجم آوروبا، وتاتشر هاجمت الارجنتين. كلّ هذه الدول مسيحية، فليس الدين سبباً لهذه الحروب.

إنتابتها موجة سعال... ثمّ عقّبت على اعتراضي الأخير:

- يستطيع العرب ان يستعيدوا مجدهم حين يعودون الى عهدهم الوثني، وهذا ما تفعله مصر الآن. لو رجع العراقيون الى العهد البابلي والمصريون الى الفرعوني لعادوا قوّة كبيرة.

لذت بالصمت أخيراً، متذكّراً تحذيراً ما سمعته من الأصدقاء قبل ان أهاجر الى الدنمارك. من المحتمل ان نكون مراقبين خلال فترة اللجوء، وهناك احتمال ألا يكون لقاء "بغيبن" بي عابراً. لأضع

احتمالات مختلفة حتّى أحصل على الاقامة. هكذا كنت أفكّر، فلذت بالصمت، وكنّا نغادر بعد حين الى صالة الطعام.

تأكّد لي تماماً انّها لا تقتني من الحضارة المعاصرة إلا الثلاجة والتلفزيون، فكلّ أثاث البيت فرعوني يرجع الى زمن كليوباترة. ربّما تكون مثلي تحمل نقيضاً يدفعها الى التصرّف بغموض واضح، فتقتني وفق الضبابيّة والسطحيّة معاً جهاز (تلفزيون) في بيت يرجع الى عصر فرعوني، مثلي تماماً في حال امتناعي عن لحم الخنزير واندفاعي الى محرمات آخرى.

قلت بفضول: يا لها من مصادفة سعيدة تلفزيون وثلاجة في بيت كليوبايرة.

قالت كأمّ تفتعل الغضب مع طفلها الصغير فتضربه ضربات خفيفة على ظاهر يده:

- لا تكن مشاكساً مثل "بغيبن"، فأنا لا أمارس طقوسي الوثنيّة إلا في الليل.

رفع كأس البيرة، وأفرغه دفعة واحدة في جوفه، وكان يتحدّث للمرة الاولى من غير ان يسأله أحد:

في الليل حين يخيم الصمت والظلام، يستطيع الماضي أن يدنو من الحاضر ويستجيب له.

وكنّا بعدها نعيش لحظات صمت، كأننا اندفعنا اليها إجلالاً

للماضي، والسكون والليل الغاضب، وكانت الساعة توغل في صمتها، وتندفع معنا ثمّ تفاجؤنا بدقّة قويّة واحدة.

استرحت خلال تناول الطعام من الحديث المستمر، وعندما همّ "بغيبن" بأن يتحدّث معي نهرته والدته باللغة الدنماركيّة، فعاد الى صمته. كانت تلفت نظري الى الطعام الذي أعدّته: لا تخف ليس اللحم لحم خنزير. هذه السلطة من الخضروات فقط.

الحقيقة أعجبتني طريقة طبخها. لم يكن إبنها مغالياً في الحديث عن قدرة امّه الفائقة، امّا احساسي فقد نقلني الى ماضٍ قريب جداً. مهما يكن للطعام من لذّة، فلن يكون لذيذاً كطعام امّي. اغتنمت فرصة الصمت لأهرب الى ماضٍ كرهته وأحببته. ارتسمت امام عينيّ صورتها، وراقبتني وأنا أقضم اللقمة. كانت تجلس قريبة منّي بفوطتها السوداء، وثوبها الهاشميّ الأزرق، تراقب هدوئي وصمتي. في الايام الأخيرة أطلت الجلوس معها. تصورت أنّي لن أشبع من طعامها. سألتني ذات يوم: هل هناك مشكلة تعترضك؟ قلت كاذباً: كلا. قالت: قلبي يحدّثني بشيء. اذكر الوقت تماماً. كان ظهراً، وفجأة انقطع التيار الكهربائيّ. طردت عنّي الحرّ بمروحة يدوية وكانت امّ "بغيبن" في تلك اللحظات ترفع كأسها، وتهتف: صحة.. كرعا كأسيهما، وكرعت كأس عصير أستعيد بها الذاكرة التي أبت إلاالحضور الآن. نسيتُ ان أسمّي فحذّرتني: الطعام من دون اسم اللّه يمسه الشيطان. اذا قلتها لن

تصبيك علّة. كدت أبكي، وأنا أبصر عجائز في الثمانين ينصرفن الى القمار في حانات كوبنهاغن ولا مجال أمامي إلا ان أستعين بالامس والضجر والصمت، فكلّ شيء يدفعني الى الهرب: الانقلابات، الطائفية، الحزب الواحد... كلّ شيء على الاطلاق فكيف أهرب من الصمت والبرد؟!

- هل أعجبك الطعام؟

لا أُجد امرأة في العالم تطبخ مثلك وسألتني ام "بغيبن": هل اكتفيت؟ هززت رأسي بالايجاب، وعلّق "بغيبن ليتقرّب اليها، ولعلّه يقول الصدق: امّي طباخة ماهرة.

لم يكفّا بعد الطعام عن الشرب. أحضرا شراباً مزجاه بالقهوة، وكنّا نعود الى أحاديث عن التاريخ والدين والفلسفة، إكتشفت من خلالها ان امّ "بغيبن" تستطيع ان تدير ايّ نقاش، أما هو فلم يعنيه إلاالشرب أو التعليق العابر. كانت شخصيّته تذوب أمام شخصيّتها وتضمحل. إستمرت الاحاديث الى الساعة الثالثة، فمال عليّ مع دقات الساعة، وهمس بأذني:

- عادة أمّي تسترخي بعد الثالثة!!

ربّما إنتبهت العجوز الى معطفي للمرّة الأولى وانا التقطهُ من على الشمّاعة قرب باب الخروج. كانا يتحدّثان باللغة الدنماركية، فشعرت بضيق إرتسم على وجهي مباشرة. أصدقائي يقولون أنا لا

املك وجه لاعب (البوكر)، لو كنت ألعب القمار لاكتشف المحترفون ما في يدي من ورق، لعلّ العجوز ادركت خطأها بعد ان قرأت ملامحي. فمدّت يدها تصافحني....

لم يكن الجوّ بارداً في الخارج، كما لم يذهلني سكون الشارع عن انطباع جديد تركه "بغيبن" في نفسي. كان طوال الوقت صامتاً، وحين أصبحنا في الخارج بدا يثرثر، أمّا أنا فالدهشة التي سبَّبتها ثرثرته المفاجأة، وإمتعاضي من سلوك أمّه الاخير في حديثها معه حول المعطف كما توقعت، دفعني الى ان أسأله بفضول:

- كنت صامتاً طوال الوقت. ألم تكن افريقيا تثير إهتمامك؟

- أنا رجل مبذّر، هي تعرف ذلك. سألتها مرّتين عن نقود فغضبت.....

استرحت عندما إتضح لي الامر، ولعلّي خجلت من نفسي قليلاً. مازلت أحتفظ بروح الشرق في داخلي. الشك. الظنّة. سوء الفهم. تحدّثنا بالدنماركية مرتين فارتبكت، ثمّ اكتشفت انّي خمّنت خطأً. كلّما حاولت ان أهدم جداراً بيني والعالم الجديد، وجدت جداراً آخر يرتفع مكان الأول بالضبط.

سؤالي فتح شهيّة "بغيبن" للكلام. ظنّ صمتي اهتماماً بحديثه، فراح يحدّثني عن مغامراته في السفر وزياراته للحانات، وانّه يفضّل العرق البرتغالي، واليوناني والنبيذ الفرنسي، إلا انّ الشيء الوحيد

الذي يزعجه هو الأسبوع الأخير من الشهر. فيه يعلن افلاسه تماماً فاذا ما طلب من امّه شيئاً امتعضت وراحت تزجره وتلوي أنفها، أو تنظر اليه شزراً، وتتمتم بعبارات سمعها من قبل منها.

- لعلّها تخشى على صحتك.

- والدي عاش سبعة وسبعين عاماً، كلّ يوم يشرب زجاجة عرق ويكرع البيرة من المعمل مجّاناً.

ثمّ نفث الهواء طويلاً، وترنّم:

- سبعة وسبعون عاماً.. إنّها تكفي لـ"بغيبن" نفسه!!

فجأة توقف عن الغناء، وربت على كتفي:

- لا تظنّ انّ امّي بخيلة. على أيّة حال إنّها طيبة القلب وسأكون الوريث الوحيد لها. سوف لن أظلّ هنا اذا ماتت، بل أبيع شقتها، وأرحل الى احدى الدول.

عند مركز المدينة إنصرف الى شقة صاحبته، فتوجّهت الى السفينة لأقضي ساعات في غرفتي ثمّ أخرج قبل السابعة الى الرصيف حيث أكون بانتظاره.

هناك كانت صورة امّي تقتحم عليّ الضجّة، فلا ترهقها قطّ آلاف الأميال بل أراها ترفع يديها يومياً بالدعاء، وتتمتم بقراءة آيات من القرآن. كنت استفيق بعض الأحيان فجراً، فاذا بي أجدها

تنصت الى قرآن الفجر والاذاعة. تعرف مواعيد افتتاح الاذاعات لتسمع القرآن قبل كلّ شيء، وتكتفي بعد التلاوة بالأخبار.. حتى اذا صحوت أخبرتني عن المرتِّلين والقراء.. اليوم عبدالباسط في القاهرة.. والحصري في دمشق.. ابو العينين شعيشع في بغداد... بعدها تقصّ عليّ ما حدث في العالم قبل ساعة تقريباً، فهي على حبّها للصلاة، والقرآن الكريم، لا ترغب في ان تحرمني من نوم لذيذ.. لقد طغت صورتها اليوم بالذات، فظهرت ساطعة كأنّها تحاول ان تحميني وأنا أقابل امرأة في السبعين تغطي وجهها وشفتيها بأصباغ وردية وزرقاء، وتلبس على كبر سنها بدلة الى الركبتين!!

لا أدري كم قضيت من الوقت مع صورة أمّي، غير أنّي إستفقت قبل مدة قصيرة من الموعد، استفقت وأنا أحسّ بلذّة حلم جديد أتحسس طعمه في ذاكرتي... عندئذ كنت بعد لحظات على الرصيف بانتظار السيارة!

- ٥ -

كانت فتاة رائعة شقراء واسعة العينين عريضة الوجه، تفرض احترامها على الآخرين من أول وهلة ، بصورة لا تخلو من الغرور أحياناً، إختلست النظر الى مرآة السيارة فالتقت عيناي بعينيها. سألتني هل أعرف السياقة ، فأجبتها أنّي كنت سائقاً في الجيش وحدث حينذاك أمر جعلني أكره القيادة. رجعت بي الذاكرة الى حرب كردستان. بعد ان أنهيت الجامعة، فقيل لي وقتذاك انّ السائق يتخلّص من مضايقات الضابط والعريف، ولا يضطرّ الى حضور التدريب اليومي، فأصبحتُ سائقاً للوحدة. كان الضابط يجلس جنبي، ولم تكن طبيعة المنطقة تسمح لي بأن أتخطّى الأربعين كيلومتراً في الساعة... وفجأة... إنعطفت باتجاه السفح . حدث شيء رهيب. كدت أفقد التوازن لهول الصوت. انفجر لغم تحت العجلة الأماميّة اليمنى حيث مقعد الضابط، فامتصّ جسمه كلّ الشظايا. هذه اللحظات جعلتني أحسد الجنود في المواضع، فأراهم يعيشون نعيماً حرمت منه.

قاطعتني بابتسامة كشفت عن أسنان بيضاء عريضة:

– هنا ستكون بمنأى عن الألغام عدا العجائز المقرفات وهن يعبرن الشارع ببطئهنّ المقرف.

حدثت نفسي: كيف اذا أصبحتِ يوماً ما واحدة منهنّ؟ وعقّب بغيبن مباشرة:

– اما أنا فأحبّ انّ أركب السيارة وأحلم.

– إنّك رومانسي.

– ألا ترى انّ نصيحتي ل"أنغذ" بشراء سيارة بنفسجية فكرة رومانسية!!

عقّبت تؤكّد قوله:

– كثيراً ما يعاني من الأرق وحين يركب معي أجده ينعس.

كان المرقص يعج بالروّاد. ربّما لفت شكلي نظر بعضهم. كنت أعيش لحظة تردّد ورهبة، فهذه هي المرة الأولى التي أزور بها مرقصاً. شاب فى الثالثة والثلاثين، لم يسافر قط خارج مدينته سوى مرتين، مرة في حرب عصابات، فأفزعه لغم انفجر تحت السيارة، ومرة آخرى الى الحدود في حرب طويلة هرب منها الى الخارج. لاشيء في الماضي سوى المغامرة والموت. وجدت الحزن يسبقني الى المرقص، هو نفسه الحزن الذي رضعته مع الحليب

وشربته في الماء. أنت من الجنوب، فيك رائحة كربلاء، تحمل منذ ١٣٠٠ سنة حزناً عميقاً تجدّده كلّ كربلاء كلّ يوم، يلاحقك في كلّ مكان!!

استأذنني "بيغين" وصديقته، ودخلا حلبة الرقص، فبقيت مع كأس الليمون وزجاجتيهما الصفراوين، ليغزوني صوت جميل وضع حدّاً للصخب والهمسات ، وظلّ يحوم حول منضدتي

القمر المعتم
بعيداً، عالياً
في السماء يحلقّ
أيهّا القمر المعتم
قل لي:
لماذا فقدت بهاءك.

دقائق وإنتهت الأغنية. عاد "بغيبن" و"انغذ" يلهثان من التعب، والعرق يتصبّب من جبهتيهما. رشفا جرعات يرويان ظمأهما، ثمّ مالت "انغذ" لتهمس في أذني:

- هل لاحظت شيئاً ما؟

- أتقصدين ملابسي أم شكلي؟

"بغيبن" متطفّلاً: دعيه فإنّه يظنّ نفسه في صحراء.(استدرك في الحال): آسف لم أكن أقصد.

تفادت "انغذ" الموقف، فقالت:

- أترى الفتاة ذات البدلة الرماديّة؟

التفتّ الى الجهة المقابلة لمنضدة البليارد فوقع بصري مباشرة على فتاة تجاوزت العشرين بسنتين أو ثلاث، بيضاء ذهبيّة الشعر ذات فم صغير، ووجه مدوّر، يبدو أنّها أنتبهت إلى حديثنا عنها فتظاهرت بالنظر الى دكّة البار.

- إسألها أن ترقص معك حالما تعزف الموسيقى.

احمرّ وجهي، فتمتمت: لكني لا أعرف الرقص.

تأفّف "بغيبن": أتعتقد انّ الناس لا يشغلهم شيء سوى ان يتابعوا حركاتك.

وقالت "انغذ" مؤكّدة: هناك سحاقيّتان ترقصان مع الموسيقى.

غمزت بعينيها نحو منضدة يلفّها القتام، جلست حولها فتاتان في سنّ الثلاثين ثمّ واصلت:

- ربّما سيأتي لوطيان ليرقصا أيضاً.

يبدو انّ "بغيبن" ضاق في ان يكبت ضجره من سذاجتي:

- لو إنقلبت الدنيا لما أعارها الناس في هذا المكان ايّ اهتمام.

امّا "انغذ" فعاودت حماسها: لا تضيّع الفرصة. غاية ما تفعله ان تطوّق ظهرها بساعدك، وتمسك يدها بيدك الأخرى، وتتحرك...

قبل ان تنتهي عبارتها إنبعثت من مدرج المرقص موسيقى وصخب، ثمّ انطلقت أغنية جديدة:

غرباء في الليل
نهيم لا ندري
إلى أين؟
نسير في الشوارع
تائهين
لأننا غرباء.

كانت تجلس وحيدة تتأمّل كأسها، عندما إقتربت منها، رفعت نظرها اليّ، واستقبلتني بابتسامة طفوليّة. هكذا بدت لي ملامحها. إنّها أكثر إثارة من بعيد غير انّها اكثر صفاءً وأنت تنظر اليها عن قرب. هذا الوجه الطفولي، والعينان الغريبتان الصافيتان والابتسامة الواسعة.. كلّ تلك الملامح يمكن أن ألخّصها بكلمة واحدة هي المسافة. المسافة شيء مبهم يمكن ان يكون وحشاً رهيباً يفترسك في لحظة فلا يبقي منك على ايّ شيء سوى هيكل عظمي، وبلحظة صافية تكاد ترى فيها كلَّ الحواجز زجاجاً شفافاً، ينقلب الى زهرة جميلة تشحذ منك لمسة أو نظرة اعجاب.

قلت وجسدي يرتجف كلّه:

- هل من الممكن ان ترقصي معي؟

مدّت يدها، وإتسعت إبتسامتها الناعمة، طوقتها بيد، ومسكت

يدها اليسرى، إجتاحني شعور بالخجل والاضطراب. هي المرة الاولى التي أرقص فيها. لا أدري كم مرة دعست على قدمها خلال الحركة الهادئة، والموسيقى البطيئة، ثمّ الكلمات المؤثّرة للأغنية.خلت الزمن يطول، ويطول، وأنني أسمع أطول أغنية في حياتي كلّها.

وكان العرق يتصبب من جبيني، والارتباك يلوح واضحاً على تصرفي، حيث تصوّرت انّ كلّ العيون كانت تراقبني، فيُدرك الحاضرون انّي ارقص للمرة الاولى.

سألني "بغيبن" بعد أن رجعت الى المنضدة:

- أرأيت أنّ الرقص لم يكن عقدة؟

لم يكن عقدة على الاطلاق. إنّه اخف وقعاً من لغم ينفجر تحت قدمك أو تحت عجلة تقودها، لكنّه عيب. بهذه الصورة تحدّثت جدّاتنا وأمهاتنا عن الرقص، ولم نكن نرقص. كنّا نضرب الصدور. في ايام قليلة يتجمّع ألم آلاف السنين، وإضطهاد حقب طويلة، فنروح نمسك بعضنا، ونضرب صدورنا؛ حتّى نسقط متعبين.

قلت بنفس متقطّع:

- لكنّه كالركض يقطع النفس!!

رشفت جرعة من الكولا، في حين سألتني "انغذ":

- كيف وجدت الفتاة؟

- وجهها أكثر جمالاً عن بعد، لكني أراه عن قرب أكثر صفاء.

قالت بخبث: اللوحة كذلك، تراها جميلة من بعيد أمّا عن قرب فترى عليها كلّ آثار الفرشاة!

إنفجر الاثنان ضاحكين. جاريتهما بضحكة مصطنعة. لاأستطيع ان أقول ان شعور "انغذ" نحو الفتاة يمكن ان يُحمل على الغيرة شأن أيّة فتاة تنظر الى الاخريات اقلّ جمالاً منها. قدّرت أنّه كلام سكارى فقط، اذ لم يكتفيا بالبيرة، فطلبا (ويسكي) ومزجاه بشراب آخر لا أعرفه. بعد فترة صمت إقترحت "انغذ" ان أدعو الفتاة الى الجلوس معنا حال انتهاء الرقصة القادمة.

كانت أغنية دنماركيّة هذه المرة. المرة الثانية زال الخوف والخجل. لامس ذراعي صدرها، وكاد خدي يلتصق بأذنها، فأحسّ بأنفاسها تكاد تنطبع على رقبتي وصفحة وجهي. رغبة في صدري تنقلب الى لهاث مكتوم، فأنسى الموسيقى والراقصين. كلّهم سكارى لا يعنيني أمرهم ما دامت هذه البيضاء ذات الشعر الذهبيّ بين ذراعي، ألفّها كيفما أشاء، وكأنّي احرّك الدنيا من بار صغير.

وافقت على أن تنتقل الى منضدتنا. "بيا" أعلنت عن اسمها

ومدّت يدها تصافح صديقي وانبرى "بغيبن" للتعريف بي. قالت إنّها طالبة فلسفة في السنة الرابعة. رفع الجميع كؤوسهم بمناسبة التعارف الجديد.

- هل أنت مسلم متعصّب؟

لست عاجزاً عن خلق ايّ عذر أتحاشى به الاحراج فقلت:

- قرحة!!

كان "بغيبن" يغمز بخبث:

- تذكّر انّ الفلسفة لا تعالج الامراض.

"انغذ" بحماس مفتعل:

- ولا الطب أيضاً.

امّا "بيا" فكانت تعبّر عن التعليقات البريئة بإبتسامة أقرب ما تكون الى الخجل:

لا الطب ولا الفلسفة يستطيعان أن يعالجا الامور ما لم يكن الانسان نفْسه.

"بغيبن" اقرب الى الهزء:

- ذلك شيء لا أفهمه، وكلّ شيء لا أفهمه اسمّيه فلسفة.

ضحكت "انغذ": من حسن حظّي انّك لا تفهم أيّ شيء.

رفع كأسه، فرفعنا كؤوسنا وهتف:

- طوبى لمن لا يفهمون ولمن يفهمون.

للمرة الثالثة تصدح الموسيقى، فأجدني أمسك يدها، كأنّي انتظر تلك اللحظة،لأهرب من الظمأ والحزن، ومن حرّ رافقني سنين طويلة امتدّت الى ما قبل النفي. كانت فتاة سمراء التقيتها في الجامعة السنة الأولى. اسمها عايدة لا أدري أهو من الرجوع أم العيد. ضحكت من تعليقي على اسمها، لكنّي لست طلقاً في كلّ الاحوال، فقد أجد صعوبة في الحديث عنها لأنّ ذلك يؤلمني. قالت لي مرّة ونحن نجلس في حديقة الكليّة، ونتطلّع الى الأشجار: كم تحبني؟ قلت: عدد الأشجار في العالم. في هذه اللحظات حطّ زوج حمام على الشجرة القريبة، وبدءا يمارسان الحبّ. نظرت اليها نظرة وقحة فإبتسمت ابتسامة خجولة، وشاغلت نفسها بأمور أخرى. سألتني متى...؟ سؤال يحيّرني. لم أكن لأفكر بالخطبة والزواج، حينذاك، كلّ ما أفكر به أنّ العسكرية تنتظرني وأنّ الحرب تستمر في دورانها كالمطحنة... مع ذلك فهي تتشبّث بخيط واه.. كالغريق الذي يتطلّع الى ايّة قشّة.. وبعد سنوات أربع افترقنا. كانت صدمة لها. السنوات الاربع جعلتها تؤمن بي ، وترى فيّ فارسها... كنت افكّر بالعسكريّة والجثث والقتلى. الطاعون القادم يستوعب كلّ الاحياء بلا استثناء، وهي تفكّر بي وتودّ الا نفترق، وفي اذني صوت جديد: صوت ناعمٍ يسألني من أنا، وكيف

قدمت، وصوت "بغيبن" المرح يذكّرني بأنّ الجوّ هنا في الدنمارك يتغيّر بصورة مذهلة كالنساء تماما...

قلت لها: هل آمل بلقاء آخر؟

قلت ذلك دون ان أحسب حساباً لما في جيبي.

انتظرني غداً في السفينة الساعة الخامسة.

اذن وداعاً للحرمان. انا بحاجة إلى امرأة حاجتي الى اللجوء والماء والطعام، فالسفينة نجت من طوفان رهيب، وعلى متنها كلّ شيء، النساء، الطعام. نجوت من الضجر بالتأكيد وسأظلّ بروح جديدة الى يوم غد الساعة الخامسة... معي بطاقة تحمل إسمها ورقم تلفونها.. ولن تضيع منّي. فتاة جاءت تبحث عن صيد، ورجل هرب من الوقوع في شباك الضجر، فإلتقيا، لكنني أرى الزمن طويلاً الى الساعة الخامسة. كلّ معاناة الماضي تدفعني الى الوقوع بين ذراعي امرأة. الخندق. اطلاق النار. الهرب، تمزيق جواز السفر. الاحداث تصبح خلفي سيلاً خشناً يدفع بي الى مرفأ جديد، فأظلّ أبحث عن نغمة شاردة تتوازى بين شوقي الى امرأة وحنيني الى أرض بعيدة، ثمّ شوقي الى ارض بعيدة، ثمّ خوفي من تأخّر لجوئي....

وهاهي الموسيقى تتوقّف، والساعة تقترب من الرابعة صباحاً. كلّ شيء يميل الى الهدوء بعد صخب وحركة... الوجوه بدت

مرهقة. كانوا سكارى، يعيشون لحظات الخدر والاحلام... كنت اليقظ وحدي، وفي ذهني حلمٌ لذيذ يشبه احلام السكارى ولا يلتقي معها على الرغم من الهدوء الذي يشبه في ساعة متأخرة من الليل أنفاس القبور!!

- ٦ -

كان حضورها إلى السفينة مفاجأة للجميع. رأيت العيون تنظر إليها بدهشة حين انتظرتني لحظات بصالة الاستراحة. ربّما همس صوت: هكذا هم الرجال، ولعلّ هناك من ينظر اليّ نظرة حسد واعجاب لأنّ امرأة تنتظرني.

عشر سنوات بيني وبينها. قد تتسع الهوّة قليلاً بسبب التعب والاجهاد اللذين إرتسما مبكراً على وجهي. سألتها إن كانت تفضل الجلوس في كافيتيريا تختارها، لأنني حديث العهد بكوبنهاغن ولا أعرف معالمها. كنت قلقاً بعض الشيء، فما عسى أن أفعل اذا اختارت مكاناً غالي الثمن، أو طلبت مشروباً لا يغطّي ثمنه ما في جيبي. سأضطرّ إلى مكاشفتها بالحقيقة. لابدّ أن "بغيبن" أخبرها عبر الهاتف عمّا يخصني. لم أزل لاجئاً قيد الدرس وظروفي المادية لا تتحمّل أي بذخ، لذلك بعث ردها السريع بعض الراحة في نفسي حين عرضت عليّ أن تتجول في المدينة ثمّ تقرر بعدئذ.

كانت تقودني بمحاذاة النهر إلى شارع عريض. في الطريق حدثتني عن بحيرات خمس جميلة، وبجعات وطيور. عايدة أيضاً حدّثتني عن أشياء جميلة اكاد أنساها في مدينة الثلج. حالما تُنهي السنة الرابعة تتقدّم الى خطبتي. سنقيم حفلاً عظيماً. بعد سنتين نرزق مولوداً. اذا جاء المولود الأول ذكراً سميناه باسم والدك. المولود الثاني نسمّيه باسم أبي، البنت الأولى باسم امك، والثانية باسم امّي. ضغطت على يدها بحنان:

-انظري كيف وقعت في الشبك فأعلنت استعدادك للحمل أربع مرّات.

اطلقت ضحكة خفيفة:

-ان كنت رجلاً!!

قلت بخبث: مهما تماديت فلن اجرحك إلا مرة واحدة في حياتي.

- وقح!!

تنسى محدّثتي أنّ هناك ناراً تنتظرني. تفكّر بالحمل، والبيت، والولادة! بعد التخرّج أجرّ خطاي الى الجبال. أَقتل او أُقتل، واذا نجوت، فالشوارع لا تتّسع لي، حتّى تذوب الشمس فوق رأسي ليتحوّل الرصيف تحت قدميّ الى ثلج يقرص أصابعي، فأشعر به يكاد يخلع أظافري.

وصلنا إلى البحيرات.. كانت قريبة من السفينة، يكاد كلّ شيء منها يميل إلى السكون وسط هذا الجوّ البارد.. وقفت مجموعة من الأوز على أرجل مفردة، واستكانت مجموعة من طيور الخضيري عند الجرف، وهناك على بعد حيث شجرة الكستناء البريّة الضخمة أخفت بطّة رأسها تحت جناحها.

وقفنا على الحافة، فأخرجت من حقيبتها اليدويّة كيساً فيه فتات خبز، ولمجرد ان رمت ببعض الفتات، حتى انتفضت جميع الطيور، وبدأت تعوم نحونا. النوارس، البجع، الخضيري ثمّ البطة الكسولة التي لحقت أخيراً بالقافلة!!

كانت تشبه حوريّة البحر. نجلس على حافة شط العرب، ونتطلّع إلى الأفق البعيد. درسنا في الأدب والأساطير عن الآلهة والمعابد، والماء الذي يجري جنب كلّ معبد يوناني كأنّه يتغلغل في الحقيقة والخيال معاً.

- كم تحبّني؟

- هل ينضب ماء شط العرب؟

لم يخطر ببالي أن أسالها عن البجع طوال السنوات الاربع، فنحن نسمع به ولا نراه،لكنني قلت لـ"بيا" هذه المرة:

- هل سمعتِ باسطورة يونانيّة عن البجع؟

توقفت عن رمي الفتات، وسألتني مستغربة:

- أيّة اسطورة؟!

ألقيت نظرة على الطيور التي أصبحت قريبة منا:

- في يوم من الأيّام - كما تدّعي الأسطورة .حاولت مجموعة من اللصوص الاعتداء على كاهنة المعبد غير أنّ بجعات البحيرة الصغيرة بدأن بالزعيق فهرب اللصوص!

- أووه...

قالت ذلك، ثمّ عقّبت: تذكّرتِ الآن. أنت تعني الاسطورة اليونانيّة القديمة.

التاريخ يعيد نفسه!!

قلت بشوق: هل هناك اسطورة أخرى؟

بل واقع. قبل شهر حاول أحد اللصوص أن يستغلّ الظلمة لسرقة إحدى البجعات ألقى بالحبّ قريباً منها، فأمنت البجعات قرب قدميه، وحين أمسك واحدة من رقبتها، كسرت أصواتهنّ سكون الليل فإضطرّ اللصّ إلى الهرب.

- يبدو أنّه لم يطّلع على الاسطورة اليونانيّة.

-المهم أنّ الصحف طالعتنا في اليوم التالي بعنوان : لصّ يحاول سرقة بجعة من البحيرة فيهرب من البجعات!!

كانت "بيا" رائعة ذلك اليوم. يبدو أنّها تعمّدت اختيار

ملابسها. معطف طويل، بدلة زرقاء،وحذاء طويل. إنّها تختلف بعض الشيء عن فتاة البارحة. الأنوار الخافتة والدفء الصاخب في المرقص رجعا بوجهها إلى عهد الطفولة، وهنا حيث البرد والسكون أرى فيها حرارة الانثى وجدّيّة المرأة الناضجة. كأنّ الطفولة تغزوها في لحظات معيّنة، ولاتخيّم على وجهها الا تحت الأجـواء الدافئة والانوار الخافتة.

اخترنا بعد أن فرغ الكيس من الفتات، مسطبة تحاذي صف الأشجار. كنت أضغط على يدها بحرارة:

- كنت رائعة البارحة!

- واليوم؟

اليوم تختلفين، كما أنّي سأختلف غداً، لكنّي أفضلك في الدفء:

تذكّري أنّ أمس هو أول يوم نتعارف فيه!!

لفحت نسمة هواء وجهينا، فتناثر شعرها الطويل على كتفها، وكانت الطيور تتراجع بعد ان أتت على الفتات كلّه:

- هل نختاو مكاناً دافئاً؟

هناك معها لم أكن بحاجة إلى الهرب نحو الدفء الشمس تحيطني صيفاً وشتاء فلاأشعر بالبرد يغرز مسماره تحت أظافري:

- سأكون صريحة معك: مازلت قيد الدرس كما عرفت. سأقبل دعوتك في أيّة كافيتيريا بعد أن تحصل على الإقامة. الآن أنا أوجّه إليك الدعوة، ثمّ نتناول العشاء معاً في شقّتي.

استسلمت لاقتراحها. لاعيب هنا، وعليّ أن اعترف بأنّ الفتاة تنقلني من الدفء الى البرد، ومن البرد الى الدفء. اول فتاة اوربية التقيتها، وهي تجربتي الثانية. حلّقت بالامس القريب مع فتاتي العربية الى الشمس والاسطورة، أمّا هذه الاوربيّة فتجعلني أحلّق معها الى الضباب والاسطورة، فأشعر بالبرد والدفء. أربع سنوات غاب عنّي الاحساس بالبرد والسكون، وحين لمست يدها للمرة الأولى خيّل إليّ انّ الدنيا تنعقد بين أصابعي كالمنديل، وانّ الشمس تدغدغ راحة كفّي. كانت يدي بيدها ونحن نتّجه الى بار قريب. أناملها باردة غير أنّي احسّ بالدفء والعطر يشعّان من جسدها. الثقة التي اقرؤها في عينيها تجعلني افكّر بالمخاطرة معها. (أنا رجل يلفّني البرد والبعد والغربة، وهناك إمرأة التقيتها ليلة أمس بالمرقص فوضعت يدها بيدى ، وفاتني أن اكتشف إعتدادها بنفسها في الدفء، والعتمة، فإكتشفته خلال الضوء والبرد.)

كنت أتحسس ظمإي فلاأستطيع الفرار منه. لايهمّ هذا. كونها تقلّد الرجل، كونها تعاملني بصفتها انساناً ندّاً لي. تلك أمور عليّ ان أقرّبها لأنّها من عالم أول وأنا من عالم ثالث، ولستُ متأكداً بعد فيما إذا قررت أن تستمرّ معي أم تتركني بعد مدّة قصيرة.

الافكار السوداء والخوف تتسلل من رأسي مع البرد. اخترت منضدة قريبة من المنتصف، فالمقاعد جنب الزجاج المجاور للرصيف، وهو مكاني المفضّل دائماً، محجوزة كلّها.

خلال عتمة المكان قرأت وجهها الطفولي. زمن الطفولة عاد إليها ثانية. رشفت جرعة من كأس الشاي الساخن، ورحت أتأمل وجهها البريء. لم تزل صامتة، حتّى إذا رأتني أتطلّع في الشمعة القريبة منّي، رفعت كأسها وهتفت: (skal)، فرفعت الكأس الساخن أردّ على تحيّتها، وتطلّعت بعينيها.

الدفء أعادني إلى زمن الطفولة. ها هي تنظر إليّ خجلة كعذراء يدفعها حياؤها إلى الصمت. الصمت، الدفء، الموسيقى الهادئة، وأنا مع كأس الشاي والشمعة أتجرّد من خوفي وخجلي، فأرسم الطفولة على وجه أنثويّ. بدأت أتأكّد من قولي السابق قبل لحظات: امرأة تنقلني من البرد الى الدفء ومن الدفء الى البرد! بعد لحظات تخرج الى الشارع فتغرزني بالثلج.

كسر الصمت الهادىء زعيق، فالتفت جهة الصوت المتوحّش. على المقاعد المحاذية لدكّة البار جلس ثلاثة. شابان وفتاة. ثلاثتهم في سنّ العشرين. كانا حليقي الشعر من الجوانب، ولكلٍّ منهما خصلة اعلى الهامة فقط، مصبوغة باللون الأخضر، وقد ارتدى الثلاثة قمصاناً خضراء. زعقا بالدنماركيّة، فلفتا اهتمام الحاضرين. نظر الثلاثة بإتجاه منضدتنا، فاضطربت صديقتي، وكرعت كأسها

دفعة واحدة. إقترحت عليّ ان نغادر المكان. تركت نصف الزجاجة تقريباً ولم أكمل كأسي. تصرفها زادني قلقاً وإستغربت لغضبها المفاجىء. قالت إنّها ستحدّثني عن كلّ شيء فيما بعد.

أنساني الفضول برودة الطريق، فألححت عليها:

- هؤلاء من حزب FREMKRIOT وشعارهم القمصان الخضراء، وهم يرفضون أيّ أجنبيّ في البلاد.

- تعنين أنّهم استهدفوني؟!

آسيا تحمل العشرات من الألوان والاشكال.تلك آوروبا تتراجع عن قبولي الاجتماعي، فتراجعت أنا إلى الخلف. اجتاحني شعور بالنقمة. تحدّثوا عنّي بصوت عال، وحاولوا اهانتي. منذ الطفولة علمونا ان النار أسهل من العار!!

قلت مصمماً: سأرجع!!

لاذت بذراعي محتدّة: تذكّر أنت واحد وهم ثلاثة!!

قفز الى خاطري الواقع المرّ. انا قيد الدرس الآن، ومن الافضل ان أبتعد عن المشاكل. عليّ ان أصبر حتّى أحصل على الاقامة. الأجانب يدّعون انّ القانون ينحاز الى صف الدنماركيّ، لكنْ ما الذي قاله الثلاثة، ربّما هي كلمات مثل: الموت للغرباء. اخرجوا من بلادنا.

قاطعت بانفعال: أرجو ألا تدفعني الحاجة للاقامة إلى السكوت عن أمور تمسّ كرامتي وشعوري.

إندفعت بأسف، قرأت فيه الشفقة والحنوّ، وبعض التوسّل:

- ضع ببالك أنّك من الصحراء، وعليك ان تصبر مثل الجمل.

- من حسن حظّي أني لم ألتق بهم في المرقص البارحة.

ردّت بازدراء: هؤلاء لايهاجمون الا اذا صادفوا غريباً بمفرده.

نسيت البرد تماماً، وفكرت بالزعيق. الضياء والهدوء، وعيون بعض الناس المريبة تذكّرك بالغربة. كيف يتسنّى للنخلة ان تنمو وسط الثلج، وآوروبا تريدني أن أصبر كالجمل.

دخلت الدفء ثانية،وكانت شقتها هادئة، وقد رتبتها بشكل يدلّ على ذوقها الرفيع، ذوق اقرب الى الفنّ منه للفلسفة. سألتني بعد ان خلعت معطفها المخمليّ:

- ماذا تحبّ ان تسمع.

سمعت باسماء كثيرة.. بتهوفن، موزارت ، فاغنر، شايكوفسكي. ليس للموسيقى طعم الشاي او السجائر كي اعتاد عليها ، لكن عليّ ان أبدو ذا حساسيّة مرهفة للسماع، لأكتشف بعدئذ انّ الاوروبيين اعتادوا على ذلك قلت اخبط بين الأسماء خبط عشواء: فاغنر.

مشت بخفّة الى المكتبة الصغيرة، ثمّ لوّحت لي باسطوانة:

- أتعرف انّ هتلر كان معجباً به.

قلت أدّعي المعرفة: على أيّة حال فاغنر فنان عظيم يحسب السامع ان موسيقاه تسري بين الظلوع.

- الآن أتركك مع فاغنر لأعدّ العشاء.

أنصت على مضض، ووضعت احتمالات عديدة: هذه موجة تصعد وتهبط. النغمة التالية نسيم، ثمّ تلوح سفينة من بعيد ليصبح البحر هادئاً. عاصفة تهبّ واغصان شجرة تنكسر. كانت روحي بعيدة عن الموسيقى. نحن جيل الخمسينيات فتحنا عيوننا على موسيقى الانقلابات، ونشيد الله أكبر. صخب وشمس، وموسيقى حماسية، وانقلابات. جسدي مغموس بالتوتر والدفء، فلا ينسجم مع العتمة وموسيقى فاغنر، ناديت عليها أسألها ان كانت بحاجة الى مساعدة.

قدمت تحمل العشاء ومعه شيء يذكّرني بالماضي. انظر هذا من بلدك. خباتٌ من التمر لمعت في العتمة. حدثتها خلال الطعام عن النخيل وعدده في بلدي، وعن النسبة العظمى في مدينتي. توغلت في التاريخ بعيداً، فرأيت مريم وهي تلد المسيح أسفل نخلة. أحلام بيضاء إختلطت بخضرة النخيل لتمتدّ أمامي منذ عهود قديمة إلى عهد رحلت فيه فذاب الزمن بفمي وعيني.. وكانت الفتاة التي

تصغي إليّ تغيب مع الحكاية وتعود تحلّق بالزمن الذي اختصرته من أجلها....

وبعد أن إنتهينا من الطعام، غابت قليلاً، ثم أقبلت ترتدي ثوباً بيتيّاً فضفاضاً يكشف عن مفاتن جسدها.. إستقبلتها بين ذراعي، وغبت معها في قبلة.

همست بإذني: حدّثني عن طفولتك؟

تحبّ ان أتكلّم. يعجبها كلامي، في حين كدت أفقد السيطرة على أعصابي. داخلي وحش يتحرّك. يدفعني الى إلتهامها، لو فعلت ذلك لفقدتها الى الأبد. يعجبها أن اتكلّم عن نفسي، والوحش بداخلي يغريني بأن أختصر الكلمات.. عشت في بيئة قروية، إنتقلت الى المدينة.. الكلمات تتوالى سريعاً في خاطري لتختصر الزمن. أحنّ الى قريتي دائماً. كم لعنت المدرسة وقتذاك لأننا إنتقلنا من أجلها الى المدينة. قريتي تقع وسط غابات النخيل، لاتزرع إلا الأشجار المقدّسة: النخيل والسدر.قاطعت بهمسة وعيناها تدوران مع حديثي الخافت القادم من الماضي البعيد، ثمّ تغيبان في صفحة خدّي:

-السدر؟

- نعم السدر. شجر نأكل ثمره ونغسل بورقه الموتى.

عدت للحديث وعاد الوحش يغريني بإلتهامها؛ فأختصر

الكلمات: يصعب على الانسان أن يتذكّر طفولته كلّها دفعة واحدة. كانت تستسلم لجسدي ورغبتي، وتعيش زمناً اختصرته لها بلحظات، وعندما منحتني كلّ شيء ألقت برأسها على كتفي. لحظتها اجتاحتني رغبة في الحديث عن الماضي.. لكنّها راحت تغطّ بنوم عميق... نامت ويدها كالطفلة على صدري... أمّا أنا فقد حاصرتني رغبة في الكلام، وليس هنا من أحد يسمعني.. كلّ شيء ذاب بالعتمة والموسيقى الخافتة التي لم أعد أعرف لمن تكون، إلا ذكريات الطفولة التي أثارتها ثمّ غفت على وقعها في حين كنت بأمسّ الحاجة إليها لكي تسمعها منّي....

- ٧ -

في اليوم التالي جلست الساعة العاشرة. لاأدري أيّة ساعة نمت غير أنّي عانيت من الأرق. حاولت ان أهرب من افكار غزت مخيّلتي بالتطلّع الى الجسد العاري جنبي. كم كنت ظمأً الى امرأة، حتى اذا ارتويت منها نامت هادئة، وتركتني وحدي لليل الطويل.

الافكار تقتحم عليّ السكون. لاأدري لِمَ لاأقدر على النوم! من المعقول ان افكّر بالفرح الذي يطرد عنّي النوم. بعد رحلة طويلة من الحرب والقلق والتشرّد إستقرّ جسدي على صدر دافىء. غلبتني الأفكار، وكأنّي لا أصدّق أنّي نجوت. لاأريد ان افقد الواقع الجميل عندما أغفو، فتقع عيناي على حلم مشاكس.. كنت اخشى ان يذوب الواقع بالحلم.. ومع ذلك رضخت افكاري. أخيراً تسلل النوم الى عينيّ غصباًعنّي....

غادرت الشقّة الى الجامعة، وتركت لي ورقة صغيرة على المنضدة قرب السرير: عزيزي ستجد فطورك جاهزاً في المطبخ.

القهوة حفظتها ساخنة لك في (الترموس). آمل ان تتصل بي في اقرب وقت ممكن! ملاحظة صغيرة: لاتنس ان تتأكّد من الباب حين تغادر الشقّة.

وجدت قطعتي خبز، وزجاجتي مربّى، وعلبة زبدة. يبدو انّها لم تجد الوقت الكافي لتغسل الأطباق من بقايا الطعام، فخطرت لي فكرة: سأقوم بالتنظيف بعد ان أفرغ من فطوري. هذا المكان الصغير الهادىء يفصلني عن الصخب والضجّة. منذ أيّام وأنا اعاشر ضجّة صاخبة تنغّص عليّ الوجبات الثلاث. الآن اجلس الساعة العاشرة كملك بالضبط، اتطلّع من نافذة المطبخ الى حديقة صغيرة تحيط بها العمارات على مرمى بصري. ستكون لي مثل هذه الشقّة، وسأنعم بالهدوء. بهذه الصورة حدّثت نفسي، وأنا أتلذّذ بفنجان القهوة. يبدو انّ "بيا" وضعت ثقتها بي من أول يوم. "بغيبن" قال لي: الفتيات الدنماركيات يتقلّبن كالجوّ. وسط التقلّب ألتقي امرأة تثق بي. لعلّ بعض الشواذ تغيّر مفهوماتنا عن الحياة، فأفترض انّ "بيا" التي استقبلتني بلا تحفّظ، وفتحت لي باب بيتها بغير استثناء، قد تكون استثناءاً من قاعدة عامّة عرفها العالم عن فتيات الدنمارك، وسواء وضعت في بالها صداقة عابرة أم فكرة أخرى، فأنا لاأنكر انّي أحنّ الى الاستقرار والهدوء.

أنهيت فطوري ثمّ غسلت الصحون. رتّبت المطبخ، ثمّ فضّلت ان اترك لها ورقة أخبرها انّي سأتّصل بها مساءً لنتّفق على موعد آخر.

في الخارج كان الجوّ صحواً ، وبقايا الثلج ماتزال تغطي الأرصفة. شروق الشمس سبَّب إنخفاضاً لدرجات الحرارة، ممّا جعلني اشعر بألم في أسفل ركبتي. اشياء حادّة كشفرة السكين تحزّ أظافري. برودة الجوّ جعلتني أحثّ الخطا الى السفينة، وكادت سرعتي، وتشتت انتباهي تسببان بإنزلاقي مرّتين. الحقيقة كنت بحاجة الى بعض الملابس، وحذاء سميك. غير انّ تعرّفي بـ"بيا" جعلني أنسى البرد. كنت ظمآن الى امرأة. وجدت نفسي على إمتداد سنين طويلة أقف وسط صحراء قاحلة واسعة الأطراف، هاجرت زحفاً نحو مدن الشمال فأستقبلت الغيوم والثلوج، وبلحظة ارتوت الصحراء داخلي فتذكّرت الشمس. يخطر ببالي الآن أنّي حصلت على الدفء الليلة السابقة، لكنّي أرتجف من البرد، وخطواتي تكاد تنزلق على الرصيف، فأحثّ السّير مسرعاً الى السفينة لأهرب من برد الشارع، وقسوة الرصيف.

صعدت السلّم، وإتجهت الى لوحة الاعلانات مباشرة، شأني كلّما خرجت من السفينة أو عدت اليها. على اللوحة قرأت ثلاثة ارقام جديدة... المفاجأة أنَّ رقمي من بين الارقام، إرتسم الفرح على وجهي، واقتحمت الغبطة ملامحي، لم أستطع أن أخفي لمن يعود الرقم، فأدرك الواقفون الخبر من قسمات وجهي وحركة جسدي، سارع بعضهم الى مصافحتي يهنؤونني بالخبر السعيد، كما لو كانت تربطني بهم معرفة قديمة. مبروك. مبروك. إنّهم

يهنّؤونني لأنّي اصبحت لاجئاً. خرجت من الشرق الأوسط كأنّي أخرج من كارثة رهيبة، أو زلزال هائل نجوت منه بأعجوبة. تحرّرت من النار والحروب، والانظمة الدكتاتوريّة حتّى أصبحت كلمة لاجيء تعني الجنّة والحلم الطيب لأيّ واحد يهرب من الشرق. وداعاً للسنين الضائعة. سأعيش في الدنمارك، آكل وأشرب وأنام، وفوق كلّ ذلك أحصل على راتب من الدولة. إنّها الجنّة الموعودة التي يحلم بها كل شرقيّ.

ذهبت الى غرفة الاستعلامات، فأخبرني الموظف أنّ عليّ أن أحضّر نفسي للرحيل. تقرر نقلي الى "فردريكس بيرغ". قال انّها مدينة إقليمية هادئة تبعد عن كوبنهاغن ستين كيلومتراً. هناك أدخل مدرسة، فأقرأ دروساً تعدّني للاندماج بالمجتمع الدنماركيّ.

لم يكن يشغلني أيّ شيء عن الخبر السعيد، سوى الاتصال بـ"بيا". الحقيقة لاأريد ان أفقدها. إكتشفت فيها هدوءاً فقدته طوال عهدي القريب بمدن الشموس. الأمر ليس لحظة عابرة من ناحيتي. في السابق كنت مشتتاً. الجامعة والأمل الضعيف، ثمّ الحرب. بدأ عمري يقترب من منتصف العقد الثالث، والى الآن لاشيء. سيكون لي بعد الامتياز الأخير الذي حصلت عليه يوم أمس، أن أفكّر بالاستقرار وأنعم بالهدوء، كأيّ رجل يرغب ان يتزوّج وينجب اطفالاً. وجهها الذي يحمل سمة الطفولة في العتمة، والجدّية وقت يخيّم الضباب، ذلك الوجه نقلني بصورة

مفاجئة من القلق والاضطراب الى الاستقرار والهدوء. إنتشلني من صخب وخوف طوقاني منذ الطفولة، فكانت كحلم رقيق خيّم على أهدابي ليمسح كابوساً جثم فوق صدري منذ أمد بعيد. بالأمس وانا صبيّ رافقت الطيور والحيوانات الاليفة، ثمّ لسبب ما انتقلنا الى المدينة. تحوّلت من الهدوء الى الضجة، فتوالت الأيام حبلى بأشياء عظيمة وكبيرة. رأيت الناس يَقتلون ويُقتلون في الشوارع. يسقطون بالعشرات. العهد الملكي يسقط. الانقلابات، والمظاهرات أبصرها أمامي بعد أن حصلت على اللجوء...

في سنّ السابعة سقط الملك. حلّ العهد الجمهوري، في الثانية عشرة استقبلت عهداً آخر. كنت أعبر المظاهرات الى هزائم كثيرة تحيط بي كشباك العنكبوت، امّا محصلتها الأخيرة أنّي حصلت على اللجوء، وامرأة بيضاء ذهبية الشعر عبرت بي الى حلم جميل وعوّضتني عن كلّ ما فقدته وخلّفته ورائي على حدود الشمس الحائرة.

كنت أهمّ بمغادرة الغرفة لأكلّم "بيا" حين دخل عليّ (ابو الوداد). هنّأني واعتذر عن تأخره لكونه خارج السفينة وقت مطالعتي قائمة اللجوء. جلس صامتاً. بدا حزيناً على غير عادته. عرفته، على الرغم من حداثة التعارف، لايبالي بأيّة هزيمة. بنيتُ قياسي حول شخصيته من حادث المحل حين رافقته للترجمة. هذه المرة إرتسم يأس ثقيل على محيّاه. حدّثت نفسي بسخرية: لابدّ أنّه

أخفق في سرقة ((بنك)) أو اختلف مع عصابة اللصوص حول تعديل خطّة لسرقة مصرف كبير. وقد فاجأني قبل ان أواسيه:

- جئت اهنئك وأودّعك!

ربتُّ على كتفه، فأنا لااستطيع ان اخفي شعوري الاخويّ نحوه بعد الحديث الذي سمعته منه عن امّه واخواته:

- "فردريكس بيرغ" ليست بعيدة، وسنلتقي كثيراً.

قال بلهجة حزينة مؤثرة:

- كلا سأرجع الى بيروت. طلبت من الصليب الأحمر ان يعيدني الى هناك بأسرع وقت.

لاشيء عندي اقوله له. كانت مفاجئة غير متوقّعة. رأى قبله المئات وهم يعانون سنين. نحن لسنا حيوانات يطعموننا فقط. لسنا بحاجة الى طعام، نستطيع ان نوفّر وجباتنا الثلاث في لبنان. نريد الاستقرار والهدوء مثلما يمنحون اللجوء السريع للعراقي والفلسطيني يستطيعون ان يقرروا بشأننا، لكنْ لامجال الآن أمام (ابو الوداد) والآخرين إلاالصبر أو الرحيل:

- عليك ان تصبر قليلاً، فلا يمكنك ان....

حاول قدر امكانه ان يضغط على نفسه ليخفي حدّة تجتاحه:

- سأصبح عضواً في أيّة منظّمة. بعض الأحيان يمكنك ان

تصبح عضواً في حزبين أو اكثر. هناك أحمل السلاح لأصرف على أمّي واختيّ، ولن يكون لي عمل غير قتل الأوروبيين.

كان يشعر بظلم فادح يحيط به، فإستطرد بانفعالاته، وعجز عن التعبير بغير لغة التهديد، في الوقت نفسه جاء يلوذ بي، وربما وضعه القدر في طريقي لينغّص عليّ لحظات الفرح، لكنّ فرحي الغامر، لم يمنعني من ان اتعاطف معه على الرغم من الورطة التي كاد يوقعني بها قبل أيّام.

قبل ان يغادر غرفتي وضع علبة صغيرة على السرير:

- هل تقبل هديّة منّي تذكّرك بي؟

فتحت العلبة.. كان ما بداخلها ساعة جميلة... عقدت الحيرة والدهشة لساني. هذا (أبو الوداد) يسرق الزمن ويقدّمه هديّة لي، اما أنا فلا أملك شيئاً أقدّمه له، ولاأقدر مثله على سرقة شيء، فكيف أسرقِ الزمن، وأضعف الاحتمالات انّي لااستطيع في حالات كثيرة ان أهرب من الضجر. وخلال الزمن المسروق إتّسعت ابتسامته لتغطّي مرارة خيّمت على شفتيه:

- أستطيع ان أخمّن بماذا تفكّر!!

لم أمتعض من تصرّفه هذه المرة، لأنّ الساعة تذكّرني بأنّ الزمن مهما كان قصيراً أو طويلاً سيصبح وفق منظور (أبو الوداد) البسيط ضحيّة على الرغم من قوّته وجبروته لأنّ (أبو الوداد) نفسه سينقلب

في رحلة العودة الى ((أبو الجماجم)) أو ((أبو الرعب))، أو ايّة كنية أخرى.

- يمكنك أن تخمّن اذاً!!

- ليس اكثر من انّي سرقتها لك.

فعلاً، كانت الفكرة هي المحور الوحيد الذي خالجني حين توزّعت نظراتي للوهلة الأولى بين وجهه، والساعة البيضاء ذات السوار المعدني الجميل، والأرقام اللاتينية القديمة.

-انّها جميلة فعلاً.

-انتبهت انّك لاتضع ساعة في يدك، فقلت انّها فرصة مناسبة لأقدّم لك هديّة تظل تذكّرني بك.

نهض وشدّ على يدي. حاولت أن أؤخّره لكي أثنيه عن قراره أو لعلّه يقتنع بنصيحتي. هناك حيث الموت، والخوف. في كلّ بيت حرب. الحرب هي القاعدة، والسلام هو الشذوذ. الى أين تذهب يا (أبو الوداد) إصبر.. لا أمل بأن تنفرج أزمة لبنان، لكننا متأكدون أنّك ستحصل على اللجوء وإن طال الزمن.

- ستكون أمّك في غاية السعادة حين تعلم انّك حيّ وانت بعيد عنها.

فقاطعني بابتسامة مرة:

-لاتحاول ان تثير عواطفي.

-اهذا قرارك الأخير؟

قال بتصميم لاتراجع عنه:

-اعلنت للجميع في السفينة قراري، وانا رجل، عيب عليّ ان ارجع في كلامي.

نفثت الهواء، وقلت بأسف:

-آمل ان أزوركم في بيروت يوماً ما.

عانقني ثمّ خرج، وكان يغالب دمعته، ولأنني خشيت ان تتغلّب الوحدة عليّ، فتتحوّل الى كابوس يصهر اضلاعي، خرجت بعده مباشرة، ونزلت إلى الشارع. كان الجوّ بارداً وأنا أفكر بكتابة قصيدة تحمل فرحي وأسفي المتناقضين المتآ لفين. حصولي على "بيا"، واللجوء السريع، ثمّ حزن (أبو الوداد) وهو يودّعني. لاأنكر انّ ذهني تلك اللحظة خضع لمفهومات متضاربة أعجز بعض الأحيان أن أعبّر عنها بصورة دقيقة. ليست هي مشكلتي وحدي. انّها مشكلة اللاجئين جميعهم، بالتالي هي وجهة رأي الشرق كلّه.

(اوربا) عبارة عن مصاص دماء(Vampier) لاشيء يصدر عنها لوجه اللّه. النساء يفضّلن السود بالدرجة الأولى ثمّ السمر، تصرّفهنّ جاء نتيجة لتقويم جنسي، بينما الرجال في اوربا يمتازون بسيماء جمالية اكثر منّا نحن الشرقيين. لايهمّهنّ الجمال بقدر ما

تهمّهنّ القدرة الجنسية فيقع اختيارهنّ على الأفارقة والآسيويين. وقد يبدو أنّهم يشفقون علينا الآن من باب عاطفي فيمنحوننا حقّ اللجوء، وكانوا من قبل امتصّوا باحتلالهم العسكري ارضنا.. شخص مثلي يمكن أن يجد تفسيراً مختلفاً للأمر، أما غيري فيناقش المسألة باعتبارها واقعاً لابدّ منه.. غير انّي وانا اتّخذ طريقي الى صندوق الهاتف الصغير القريب من رصيف النهر، احاول أن أطرد عنّي حزناً بعثه في نفسي (أبو الوداد) بأيّ تعليل كان. لاانفي انّ بعض آراء الشرقيين صحيحة، ولعلّ حصولي على اللجوء وصداقتي لـ"بيا" جعلاني اشعر بالراحة النفسيّة والغريزيّة نوعاً ما بعد قلق وخوف وكبت عشته طويلاً في وطني المحافظ، فغيّرت من بعض مواقفي. لاأنكر هذا، مع ذلك لاأنفي اطلاقاً العامل الانساني من أيّ مجتمع كان. هناك بعض الجوانب الانسانيّة، ولا يمكنني ان اتصوّر انّ "بيا" ذات الوجه الطفولي التي فتحت لي بيتها، وروت ظمأي تريد ان تمتصّني مثل الخفّاش.

وسط الافكار المتضاربة جاءني صوتها الناعم:

- قبل كلّ شيء اشكرك على ترتيبك اثاث المطبخ.

خيّل اليّ انّها تراني فابتسمت:

-لاتقولي انّ العرب متخلّفون يأنفون من مساعدة النساء في البيت.

- no no من قال ذلك.

- أتعرفين انّي حصلت على الاقامة!!

كان الخبر مفاجأة سارة لها، غير أنّها إستغربت.

- ولم "فردريكس بيرغ"؟

-لأأدري كيف يتمّ توزيع اللاجئين، المهمّ أنّي حصلت على الاقامة.

اتفقت معها ان اتّصل بها بعد ان اصل الى "فردريكس بيرغ" مباشرة. فلم يكن لديها من وقت للراحة عدا يومي السبت والأحد، وعلينا ان نرتّب لقاءاتنا من جديد وفق ظروفي وظروفها.

حين عدت الى السفينة وجدت أهلها يقفون في طابور طويل بانتظار الطعام.

كانت الساعة تشير الى السادسة مساءً. إلاانّ الفرحة التي إجتاحتني صدّت نفسي عن الأكل. إنّها أكبر من أن تقاوم، ولا شيء يلهيني عنها، فلم أقف في الصفّ. وأكتفيت بأن اتناول بعض قطع من الجبنة والزبدة وفّرتها من الفطور... ثمّ انصرفت الى غرفتي لأحلم وأفكّر باليوم الجديد الذي ينتظرني في "فردريكس بيرغ".

القسم الثاني

- ١ -

لم يكن في المدرسة ايّ من العرب غيري. جميع الطلاب لاجئون من شرق آسيا! فيتنام وكمبوديا. كان من الصّعب عليّ أن اتحدّث معهم في الأيّام الأولى اي قبل ان نتعلّم مبادىء اللغة الأساسيّة.

اليوم الأول خصّص للتعارف وإلقاء نظرة على البناية وأدواتها. ومن الممكن القول بأنّ المدرسة الداخليّة تمثّل بناية مصغّرة لمجتمع دنماركي مصغّر. غرفة واسعة تمتدّ وسطها عددٌ من الطباخات الكهربائيّة، أما مدخل الغرفة من الشمال فيقود الى دهليز مربّع فيه غسالات الملابس، وكانت الحمامات والثلاجات الصغيرة داخل غرف النوم، وبين الممرّ العريض الذي يربط غرف النوم بصالة الاستقبال فسحة جعلتها المدرسة مكاناً للعب كرة المنضدة. اطلَعني الآذن على كلّ التفاصيل، ودلّني على غرفة نومي... صرفت لي ادارة المدرسة مبلغاً من المال يكفيني مدّة ثلاثين يوماً. كنت بحاجة الى حذاء وسروال، وبي رغبة عارمة لسماع أخبار الشرق. وضعت

ببالي الأشياء السابقة، وحال استلامي المبلغ ركبت الحافلة الى سوق القرية الصغير....

لابدّ ان أشعر بالضجر في اليوم الأول. الملل إندفع نحوي كسيل عارم انحطّ من جبل عال. لم أكن اتّصل بالعرب في السفينة، لكنني كنت أشعر بالامان. احسّ انّ الجوّ الذي يحيطني عربيّ، أشبه بسور يحيط عزلتي فلا يجعلها تمتدّ. اجلس منعزلاً في اثناء الوجبات، فأسمع الأحاديث بلهجات اعتادتها اذناي. يسقط، يعيش يسقط... أخو إلـ... الاصوات السابقة تطرد عنّي بعض الأحيان الوحشة. لاأدري لِمَ نصرّ على الالتصاق بحالة نقرف منها. قد يكون القبيح مرغوباً، مثل السجارة الأولى، تحسّ بعدها بالغثيان، والدوار، ومع ذلك تستمرّ في التجربة الى ان تصبح مدخّناً. كم أكره الانفعالات والاحاديث التي عاشرتها منذ الصغر، بي رغبة في ان اتخلّص منها، وأشعر بالخواء اذ افترق عنها.

كنت أعود من السوق، ومعي الطعام والسلع الأخرى. منظر المدينة الشاحب، والسوق الصغير يرسم دوائر الخواء أمام عينيّ، فيمتدّ الوقت وتنبسط الدقائق، كأنّها صحراء واسعة الأطراف تتلذّذ بتعذيب تائه على رمالها الساخنة. هو اليوم الاول لي فى "فردريكس بيرغ" ليست مثل كوبنهاغن. هناك تدفعك حركة الناس، والسيارات، ومظاهر الحياة إلى أن تنسى ضجرك. المنتزهات، الحدائق، المقاهي تخفف عنك الحزن، وهاهم الآسيويون

يتحدّثون مع بعضهم الا أنا. لو تحدث معجزة، فينتقل معي (أبو الوداد) أو ايّ من العرب المشاكسين، فأتحدّث معه ليخفف عني الملل.

لكن عليّ أن أتحمل.اليوم الأول لمّا ينتِه بعد، وأمامي مشوار طويل. طبخ الطعام. مشاهدة التلفزيون. أيّ شيء يُبعد عنّي الضجر. إنّ وقتاً سرقه (ابو الوداد) لي يكاد ينهشني. أحسّه كالنحل يدبّ بطيئاً على جسدي فيجعلني أحكّ. زمن مسروق يتعلّق بمعصمي لا أعرف كيف أتخلّص منه. ذهبت الى المطبخ فأخذت مكاناً يقع طرفاً. كلّ الوجوه تتطابق ملامحها إلا وجهي.إبتسمت لي شابة في العشرين، وحيّاني رجل كان يطبخ الرز، وكانت هناك طفلة تلعب بالقرب منّي، ولاكلام بيني وبينهم إلا الابتسامات.

في المساء، انضممت الى الحاضرين اراقب التلفزيون، ثمّ انصرفت الى غرفتي. إستلقيت على الفراش، وانشغلت بالراديو. التقط المؤشر بعض المحطّات العربية. كنت ظمآن الى اللغة فحملت إليّ الأحزان: ايران تقتل بعض الجنود العراقيين. العراق يعلن انّه قتل مجموعة من الايرانيّين. اسرائيل تهاجم جنوب لبنان. بلاغ آخر يتحدّث عن صراع جزائري مغربي. نحن نأكل أنفسنا. واللغة التي ظمئت اليها، وعزّ عليّ ان أفارقها ولو ليوم، جلبت اليّ الغيوم والحزن.

لم أغلق المذياع، بل وجدت بالمصادفة إذاعة ما تقرأ القرآن في ساعة متأخّرة من الليل، كنت أتابع الآيات بشغف، وكان لها تأثير السحر في نفسي. جعلتني أنسى المأساة التي انتقلت اليّ عبر آلاف الأميال، ومع القرآن الكريم تسلّل النوم الى عيني، ورواحت تحت وطأته تسترخي أعصابي.

كان عليّ ان أنهض في اليوم التالي الساعة الثامنة مساءً. استقبلت لغة جديدة، وقواعد جديدة. كانت معرفتي باللغة الانكليزية تساعدني على فهم بعض الكلمات. لابدّ ان اعرف اللغة، فربّما يطول المقام بي هنا. يبدو انّي استسلمت لقدري وخطّطت لاقامة دائمة في الدنمارك، فهناك في الشرق كما يقول المثل "كلّما دخلت أمّة لعنت أختها". سيُقتل الحاكم بإنقلاب ليأتي من هو أكثر عنفاً منه. ندخل حرباً ونخرج من أخرى. ليست هي خرافة الشيوخ الذين حدّثونا عن التاريخ كما كنت أظنّ، وليس هو يأس آبائنا من الزمان الظالم، بقدر ما هي حكمة الماضين. في هذه اللحظات الموحشة، أطلّ من نافذتي فيحجب عنّي النظر ضباب تكاثف على الشباك. أمسحه وألصق جبيني بالزجاج فأرى ضوء الغرفة يلقي على الظلمة خارج البناية صفرة شاحبة تذوب وهي تتوغّل في الظلام، فيختفي في طيّاتها كلّ شيء عدا فكرة لشيخ أعمى إعتاد ان يجلس على حصير بالٍ كلّ يوم عصراً ليحدّث الناس. ذلك الوقت كنت اعدّ كلامه خرافة، امّا الآن أرى كلام

الشيخ حكمة سخرت منها ايّام طفولتي ومراهقتي كان يقول: كلما قُتل او ذهب حاكم جاء من هو ألعن منه، من العصر الاموي الى وقتنا الحاضر. يلتفت الشيخ الى مستمعيه كأنّه يراهم ويكرر بعد ان يستعرض حوادث التاريخ: كلّما دخلت امّة لعنت اختها... ولفترة طويلة قاومت حكمة الشيخ، يبدو أنّني الآن إقتنعت بها كليّاً وأعرضت عن الاستهزاء بها، على الرغم من أنّي سأعاني من الغربة والفراغ، إلى أن أكيِّف نفسي وفق طبيعة المجتمع الجديد.

خوفي من الشرق المتغيّر خلق فيّ حافزاً قويّاً لتعلم اللغة. فانصرفت اليها بشغف.

كان الجدول مزدحماً بالدروس - عدا ساعتين ظهراً للطعام- عند الساعة الخامسة مساءً ينتهي البرنامج اليومي. نظام خاص يذكّرني بالعسكرية، لكنّ مدرّس اللغة يحاول ان يكون لطيفاً معنا. أمّا أنا فلا اشعر بالراحة إلا في ساعات الفراغ. كلّ ما يذكّرني بالماضي والنظام يعيدني الى فترة العسكريّة. الجلوس صباحاً. التدريب اليومي. العمر الذي ذهب هدراً؛ مع ذلك فعليّ ان أتدرب وأتلذذ بساعات الراحة والفراغ.

كنت افضّل أن ألعب كرة المنضدة على أن أشاهد برامج التلفزيون. عرفت - ليس من باب المصادفة طبعاً- أنّ الآذن في المدرسة يفضّل مثلي كرة المنضدة ويلعبها بشكل جيد. وجدتها طريقة جديدة لحفظ الارقام الدنماركيّة التي درستها اليوم في

المدرسة. إينْ.. تو... تري... فير.. فم... ربّما خامرني شعور بالزهو حين ألعب معه. حاولت ان أكتسحه. سجّلت تفوّقاً ملحوظاً. قد يكون اندفاعي للعب نوعاً من الانتقام. الآسيويون خارج البناية يزاولون في الساحة الواسعة لعبة كرة القدم. دخلت معهم، فلم يخالجني أيّ زهو. كنت واحداً من مجموع، أمّا في كرة المنضدة فأنا وحدي اقابل خصمي، وأمام عينيّ تتجمّع سنوات من الهزائم وتتكدّس كالجبال. خسرت صديقتي في الجامعة، تلك الفتاة التي أحبتني بإخلاص وكانت تحلم أن تسير جنبي بعد التخرج وهي حامل فتطلق على المولود اسم ابي. خسرتها في دقائق. خسرت كلّ شيء لأجد انساناً أحقق النصر عليه بصورة سهلة، وها أنا ألعب بحماس: اين.. تو.. تري.. له نقطة ولي اثنتان، ثمّ أعدّ وعلى شفتي ابتسامة بلهاء، يقابلها بهزّة من رأسه... فير، فم.. سكس.. لي سبع وله أربع...

قبل ان أحقق انتصاري النهائي رنّ جرس التلفون العمومي في الصالة، فجاء النداء بإسمي. كانت "بيا" تسأل عنّي. اتفقت معها ان نلتقي يوم الجمعة مساءاً.

لديّ يوما عطلة. سرّني ان أسمع منها أنّها إفتقدتني. قلت لها كانت الساعات التي قضيناها معاً جميلة، وجمالها ينبع من انّها جاءت مصادفة.

رجعت بعدئذ الى المنضدة. لا أحد هناك فقد إنصرف الآذن،

وانتصاري مازال معلّقاً. تذكّرت نابليون الذي هزمته خمس دقائق، وقنعت بأننا ضحيّة الوقت والمكان: نابليون والدقائق الخمس، ثمّ هتلر والشتاء القاسي. سخرت من نفسي لأنني الآن محاصرٌ بين الوقت والمكان، ومن المحتمل ان تكون هزيمتي أمرّ من هزيمة نابليون وهتلر كليهما، فعدت الى غرفتي لألوذ من هزيمة يبيّتها لي الزمان والمكان بشيئين: اللغة الجديدة والاذاعات العربية التي أسمع منها أخبار الشرق. طالعت اوّلاً الدرس الجديد. كان أول درس في المنهج. على الورقة امامي رسم لاثنين: رجل وامرأة.الرجل شرقيّ ذو شعر أسود، والمرأة شقراء ذات شعر ذهبيّ.. أنا محمّد.. أنا من... جئت لاجئاً من... ادرس الآن اللغة الدنماركيّة في المدرسة.. أنا(اوله).. من الدنمارك أنا معلّمة في مدرسة اللاجئين.. كررت الدرس وكتبته.. وحين ضجرت هربت الى الاذاعات ثانية لأسمع أخباراً جديدة. الاخبار هي هي. ايران والعراق حرب مستمرة... اسرائيل تهاجم الجنوب. لاشيء ينقذني من الحيرة والقلق، ويبسط إنقباض القلب إلا أن أجد محطّة تبثّ تلاوة للقرآن، فأُلِّف المؤشر، وأنصت اطارد النوم لأغفو.. أسمع صوت طائرة.. فأحدّث نفسي، اخطأت بتركي الملجأ، فأستيقظ على صوت الساعة ، لأكتشف انّي كنت أحلم، وأنّي مهما تجاهلت الماضي.. فليس بإمكاني ان اتحرر منه في نومي وغيبوبتي.

- ٢ -

كان عليّ ان اقضي خمسة ايّام بعيداً عن المدرسة، فقد حلّت عطلة نهاية الأسبوع قبل رأس السنة مباشرة، ووعدتني "بيا" أن تسهر معي حتّى الصباح. في اثناء زيارتي لكوبنهاغن إتصلت بـ"بغيبن" فلم أجده. قالت لي صديقته انّه فضّل ان يقضي ليلة عيد الميلاد مع أمّه، وستسافر هي الى جنوب السويد، لمّحت لي حول فتور بدأ يشوب العلاقة بين الطرفين، ووعدتني بزيارة قريبة لتشرح لي كلّ شيء. هناك أمور لا أفهمها الآن. كانت "بيا" تؤكد لي انّ انفصال اثنين بعد عِشرة طويلة أم قصيرة طبيعي، وغالباً ما يبقى الازواج والزوجات أصدقاء بعد الانفصال. لايهمني ذلك وإن بدا غريباً، بقدر ما أروم ان أروي عطشي. أنا عطشان. جئت من بلد الحرّ والنار. جئت من أرض الانقلابات والخضرة. سأبحث عن إمرأة أخرى. امّا الآن فأنت أمامي أيّها الفاتنة. بعض الأحيان يصعب عليّ ان أتخيّل الفراق، وطبيعة المجتمع الجديد تفرض عليّ التكيّف، انا أفضّل بكثير من أيّ ديناصور ضخم، حين عجز عن التكيّف انقرض، وعلى الرغم من الخنادق والحروب والقتل..

خلفت رائحة البارود ورائي. عشت لأنني لا استسلم. قصّة حياتي معجزة، وعمل خارق.. ولن أقف عاجزاً عن أن أصبح واحداً من افراد المجتمع الجديد. سأفعل ذلك. ظهر ذوباني البطيء من تعلّمي السريع للغة. استطعت بعد فترة وجيزة ان اتكلّم بعض العبارات، وليس معي اليوم أيّ مذياع اتابع عن طريقه أخبار الشرق. لا شيء معي الآن إلا صديقتي الدنماركيّة، والثلج الموعود في السنة الجديدة. وكانت هي تحدّثني عن العام الجديد. اذا لم يسقط الثلج فالناس يحسّون بخيبة أمل. أرجو ان يسقط الثلج. سنرى بعد يومين احتفالات عيد الميلاد، امّا في الصيف، فسترى كيف يلقي الناس الساحرة في البحر. أجل يحرقونها ويلقونها في البحر!!

كأنني إنتبهت الى كلمة البحر. كانت محدّثتي تشبه شهرزاد، تحدّثني عن الساحرة والبحر، فتطلعت في الساعة. تذكرت اللاجئين والسفينة، و(ابو الوداد) كنت قد نسيت الوقت الذي أحمله حول معصمي، فأنا مدين له به. جئت الى هنا ونسيتك كما نسيت الآخرين وصخبهم، فذكّرني بكم السحر:

-آ.. ساعة جميلة.. كم كلّفتك؟

سؤالها مفاجأة، مهما يكن فأستطيع ان أخترع ايّ جواب:

- ٣٠٠ كرونه هل أعجبتك؟

استأذنت من صديقتي، ثم خرجت الى الشارع، وحين أقلني

الباص الى مركز المدينة، اخترقت شارع المشي، وواصلت السير باتجاه السفينة.

ماذا أشتري لك يا(ابو الوداد)، وأنت تسرق كلّ شيء. يوم إلقاء القبض عليه حدّثني عن نفسه كثيراً. بلحظات قصيرة أوجز حياته، فعرفت أنّه يسرق كلّ شيء فليس هو بحاجة إلى شيء. كان يعتنق فلسفة غريبة. انا لا أسرق من أصحاب الحوانيت الخاصة. انا أسرق من مؤسسات تملكها شركات، وحين سألته هل حرِّمت علينا سرقة الافراد، وأُحلت لنا سرقة المؤسسات، اجاب أنه لا يدري، بل سمع بالخبر من غيره.

اللاجئون مثله يؤمنون بالفكرة، وكأنّها أمر واقع وانا حائر اتصور أن (ابو الوداد) يملك كلّ شيء، وقد حسب حسابه وأعدّ عدّته. إخفاق واحد بعد عشرين عمليّة ناجحة.

كنت أراه وأرى بعضهم يسألون اللاجئين والأجانب إن كانوا بحاجة الى ملابس واحذية وساعات. يسرقونها من المحلات ويبيعونها بربع الثمن، ولم نكن نحن اللاجئين لنستطيع ان نشتري الملابس الغالية، لكن بإمكاننا إن نرتدي ملابس ارستقراطيّة باسعار زهيدة.

قبل رحيلي بيوم عرفت انّ المعارك في السفينة لم تكن كلّها بسبب اختلاف الآراء السياسية، بعضها حدث نتيجة للسرقات. تذكّرت المعركة الأخيرة، وسمعت منهم أحاديث طريفة.الصراع

العنيف الذي بسببه تهشّمت الكراسي، وتحطّمت الأبواب، ما كان ليحدث لو لم يتجاوز أحد السرّاق على منطقة أخرى غير مخصصة له. يبدو أنّهم وزّعوا المناطق وفق مخطط رسموه فيما بينهم. عليّ ان استنتج أنّي أسير الآن في منطقة(أبوالوداد) لأنّ الحادث وقع في الشارع نفسه حين كنت أرافقه بغرض الترجمة. ها أنا الآن أسير في مملكتك يا(ابوالوداد). غادرتها فبدت شبه مهجورة، ولن اشتري هديّة لك، بل أمنحك نقوداً تبعثها الى امّك. انت ملك هذه المنطقة، وستغضب بالتأكيد اذا رأيت أحداً يتجاوز على حصنك لينفّذ ايّة سرقة.

تخيّلت نفسي في بيروت وانا أمرّ بالحواجز فأرى المنظمات والأحزاب كلّ منها يستأثر بحاجز. اَلسُنٌ مختلفة، أشكال غير متجانسة، وعندما عجزنا عن ان يغلب احدنا الآخر في بيروت رحلنا الى كوبنهاغن، فكانت وفق رؤيتنا، وانا الآن أشعر بالامان لأنني أسير في شارع(ابو الوداد) نفسه، وكلّي ثقة بأنّي سأراه في السفينة لأنّ مطار بيروت مازال مغلقاً ولن يتمّ الصليب الأحمر تسفيره الى بلد آخر. الحقيقة وددت من كلّ قلبي ان يظلّ المطار مغلقاً لكي التقي بـ(ابو الوداد) مرة أخرى هنا في كوبنهاغن.

عندما عبرت تقاطع الطرق، وإجتزت رواق المتحف. إختفى عن بصري المشهد. لعلّ السفينة غيّرت مكانها أو حملت مسافريها الى مكان آخر. الرصيف يلوح عارياً. في المكان نفسه ترابط بعض

الزوارق الصغيرة. وقفت أتأمل المكان لحظات ثمّ انصرفت عائداًالى شارع المشي. قصدت اقرب تلفون، فعرفت انّ الصليب الأحمر نقل اللاجئين الى جزيرة أخرى غرب الدنمارك. لم يكن بامكاني أن أسال عن(ابو الوداد) لأنني لاأعرف رقمه. كلّنا نحمل أرقاماً، ولا فرق بين الصايب والعسكريّة. بعض اللاجئين يطلقون على انفسهم أسماء مستعارة، فربّما هو ليس(ابو الوداد). الانظمة العربيّة في المنفى أيضاً، وتتبعنا الى ايّة بقعة نذهب. لايخافون منك، لكنّهم لابدّ ان يظهروا للعالم قدرتهم على الوصول الىايّ مكان بأيّ أسلوب كان، وانت يا(ابو الوداد) أو ايّة كنية اخرى، لا يهمّ ذلك، ستهرب منّي لكن لن تهرب منهم!!

مع ذلك عليّ أن أنسى فأتعود الفراق. الدنيا: أناس تأتي وأناس تذهب. قبل ان أسمع قصة "بغيبن" وصديقته، وفراق السفينة كنت تركت مدن الشمس والأصدقاء، وكنت بالامس سمعت أغنية عن أناس يأتون ويذهبون:people come people go، كثيرون هم الذين فارقتهم، وانا الآن أصاحب دانماركيّة،لعلّي اتركها ذات يوم وربّما تأتي المبادرة منها. كنت ادندن مع نفسي people come people go. توقفت عند معرض ملابس، وأشرت الى قبعة جميلة،. لفّها البائع بورق خاص، ثمّ حملتها اليها.

لقد بشّرتني بالصيف، ونبّهتني الى الساحرات والنار والماء. سأهديها القبّعة لتبدو في الصيف عروسة من عرائس الشمس.

إتسعت عيناها دهشة، واشارت الى المكتبة. رأيت شيئاً ملفوفاً بورق لمّاع. هذه هي هديّتها لي، وستشغل ذهني وذهنها إحتمالات عديدة إلى أن تدخل السنة الجديدة. لم تنسني مثلما تذكّرتها، والحواجز بيننا بدأت تلين وتذوب شيئاً فشيئاً، وفي المساء بدأنا نتهيّأ للسنة الجديدة. راحت تشرب من الساعة السادسة مساءاً. كانت هادئة وسعيدة. حاولتُ ان أُخفي لحظات من الحزن مرّت بخاطري من أجلها هي لا من أجلي. كنت إعتدت الحزن، ورضعته من الشمس منذ الطفولة، والجوّ الذي يحيطني على الرغم من الأنوار الخافتة يكاد يتدلّى من السقف ككرة بيضاء تهبط من خيط مربوط بالسقف. أجواء هادئة إرتسمت مع حزن شفاف على ناقوس معدنيّ صغير او طير شمعيّ يربض فوق مشربيّة النافذة، فيعكّرها، بين اللحظة والأخرى انفجارات قوية يطلقها المراهقون ابتهاجاً برأس السنة!!

كانت الأصوات تتواصل. تخترق الجوّ الخافت، فتذكّرني بأشياء بعيدة عنّي. اسمع أخباراً تأتي وتروح، وأنصت الى قصف المدافع. قتلنا ستة جنود ايرانيين. مصرع ١٠ جنود عراقيين. سقط ثلاثة فلسطينيين. لبناني يُقتل في الجنوب. وهي تسألني سؤالاً غريباً: بماذا تفكر؟ الحزن يأتي كلّ لحظة، والسنة الجديدة على الأبواب. تسريحتي جميلة: you like it؟. نعم تسريحتك جميلة. انا أحبّها بالتأكيد، امّا محصلة الصمت الذي إنتشلتني منه الآن بصورة مفاجئة فكانت آخر بلاغ سمعته ليلة أمس، قبل أن أغزوك بصمتي وحزني وعاطفتي. قبل ذلك هربت اليكِ ولمّا أعرفك بعد، فوصلت الى هنا

قبل الصيف الموعود حيث سنحرق الساحرة عند الساحل، على الرغم من أنّها تنبّأت بمستقبل زاهر. مستقبلي بالذات، وانا لا أعرف كيف أتخلّص من فرحي وحزني، وهذه الدنماركيّة تسألني عن تسريحتها، ثمّ تسكر.. وتسكر. تصبّ مزيداً من البيرة. أرى الرغوة تفيض، وأسمع الفرقعة من بعيد كأنّها احتجاج على شيء ما. اتذكّر انّي مازلت في العام ١٩٨٥ . هذه السنة دخلت التاريخ بفضلي أنا. في هذه السنة أصبحت لاجئاً. وجدت وطناً يؤويني. العام نفسه في الشهر الأول منه كنت راجعاً من الحرب بإجازة. وجدت امرأة غريبة المظهر في بيتنا، وحين سألت أمي قالت انّها قارئة الفنجان إستدعتها لتعرف منها المستقبل: متى تنتهي الحرب. لم أسألها عن مستقبلي. كنت أتنبّأ به مقدّماً. سأحاول الهروب وأمامي إحتمالان لا غير إمّا ان أخفق فأموت أو أنجو، وكانت الساحرة أو قارئة الفنجان تقول: امامنا خمسة أعوام لتتحسّن الأوضاع. سنوات النحس التي فرضتها علينا السماء عشر من ١٩٨٠ الى ١٩٩٠ ، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده. خفّ الثقل بعض الشيء عن صدري. إنّ سنة من العقد المرّ تنتهي بعد لحظات. بقيت أمامي أربع سنوات أخرى. كلّ الناس يحلمون بالعام الجديد، إلا أنا أحلم بالصيف لأرى الناس يحرقون الساحرات!!

كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة، فدعتني صديقتي للخروج. وقفنا بباب العمارة، وكان الثلج ينثّ هادئاً

خفيفاً. وضعت "بيا" اصبع ديناميت على الثلج، واشعلت طرفه الأعلى. انتشرت فيه النار، ثمّ فرقع واندفع الى الأعلى فتناثر وتناثرت أضواء أخرى تتراقص بين حبّات الثلج الهابط.

- تحبّ ان تجرّب؟

قالت ذلك، وقدّمت لي اصبع ديناميت.

- نعم...

أجبتها بابتسامة، ووضعت الاصبع على الرصيف. انا ابن دمشق، وبغداد، وبيروت..

شغلتي هذه منذ أن أنهيت دراستي الجامعية. نفرقع، ونقتل. لو كانت هذه الأضواء في عاصمة عربيّة لتحوّلت السنة الجديدة الى عام حداد... أشعلت الاصبع، وتراجعت الى الخلف. إنتشرت فيه النيران، ثمّ اندفع الى الأعلى، وتجاوب مع الأصوات الصاخبة التي غطّت المدينة مع الثلج تلك الليلة. كوبنهاغن تحوّلت في لحظات الصفر الى فرقعات وأنوار وثلج. ظلّ الثلج يهطل وحده بصمت. بعد لحظات إنتهت سنة، وحلّت أخرى جديدة... فصعدنا الى الشقة الثانية. طوّقت عنقي بذراعيها، وأهدتني قبلة. شكرتني على القبّعة الجميلة، وكانت رئتاي تمتلآن بعطر لذيذ جاءني هديّة منها، وقد غاب عن بالي لحظتها انّ القبّعة لاتنتهي، وستصبح قنّينة العطر فارغة يوماً ما؟

قالت: خمر وثلج وسنة جديدة يحقّ لنا ان نفرح.

- هل ستكونين حزينة لو لم يسقط الثلج هذه الليلة؟

-الثلج هو حياتنا من دونه نشعر بنحس، خاصة عند دخول السنة الجديدة.

إنفجر داخلي ضاحكاً. سخرت من نفسي بشماتة. كم سنة عبرتني من دون ثلج:

- أريد رأيك أنت؟

-الفيلسوف أم المرأة مجرّدة عن الفلسفة؟

قلت ضاحكاً: الاثنان معاً.

مسحت شيئاً عن جبيني بأنملها، وقالت:

- هذا تقليد ورثناه ولا نستطيع التحرر منه.

ورثوا التفاؤل بالثلج، وورثنا الحرّ والغضب. كلانا لايستطيع التحرر من الماضي.

نحن نَحِنّ بعض الأحيان الى الثلج، وفيهم رغبة ـ ارمة للشمس. ها نحن الاثنين نقف متعانقين.

ستذوب برودتها بدفئي، وسيذوب شبقي اليها بعناقها... فجأة همست بأذني:

- حدّثني كيف تحتفلون برأس السنة؟

ما الذي أقوله لها؟ مهما كان الأوربي طيّباً ومسالماً، فهو يحاول عن غير وعي أن يفرض نفسه على الآخرين. لا أظنّها تجهل اننا مسلمون. سنتنا الجديدة لها طراز خاص، ووقت خاص لأنها نسيت نفسها وهي تعيش السنة الجديدة بلحظتها الأولى فتخيّلت العالم كله اوربا.

- نحن نحتفل بالسنـة الجديدة صامتين.

أطلقتْ همسة تعجّب، وكررت:

- صامتين؟

- نعم لأننا لا نملك ثلجاً مثلكم!

ابتسمت لنكتتي الموحشة، وهمست:

- لن أدعك هذه السنة صامتاً. أكمل لي حديثك عن طفولتك. عن كلّ شيء

كنت أعانقها بحرارة وأعود الى الماضي. أردد معها سنة سعيدة.. وأحاول ان أتخلّص من الصمت لأحكي لها عن طفولتي، وكان الثلج يهطل وحده في الخارج، فلم يبق من الانفجارات إلا أصوات متفرقة في طريقها الى الذبول بعد لحظات.

- ٣ -

ثلاثة أشهر مرّت من السنة الجديدة، عبرت خلالها الثلوج، وألفتُ اللغة،بدأت أتكيّف مع الوضع الجديد تماماً.المهم أنّي كنت أزور "بيا" نهاية كلّ أسبوع ،حيث وجدت ملجأعندها يوفّر لي الراحة الجسديـة، ويجعلني أشعر بالاستقرار نوعاً ما، ذلك الهاجس الذي خفف من شعوري بالوحدة والحرمان، وكان السبب المباشر الذي دفعني الى ان أبذل جهداً مضاعفاً لأتعلّم اللغة الدنماركيـة، فإنتقلت من مدرسة التأهيل الى مدرسة ثانية أرقى منها.

والأهمّ من ذلك ،أنّ انتقالي الى مرحلة دراسيـة جديدة ساعدني في الحصول على شقـة جديدة لا تبعد كثيراً عن المدرسة. الأمر بالنسبة لي ليس عادياً إذ أصبح لي منزل أدعو اليه أصدقائي مثلما يدعونني هم لبيوتهم. ووفّر لي التلفزيون كثيراً من المتاعب. ها أنا بهذه الامتيازات الجديدة أكاد أنسى كلّ مرارة الماضي. بعد الحرب، والقذائف، والخنادق قفزتُ، وبزمن قصير، الى جنّة صغيرة هادئة. بعض الأحيان أشكّ في نفسي فلا أصدّق.

غير أنّ أخبار المساء العربيـة التي أسمعها حين آوي الى النوم تشدّني لواقعي القديم، وتحول بينه وبين لغة جديدة بدأ يعلكها لساني. لولا سماعي الأخبار العربيــة، لأوشكت ان أنقطع تماماً عن الشرق. لاشيء معي يذكّرني به إلا الراديو وساعة زيّنت معصمي سرقها لي ابو الوداد!!

كم أودّ ان تزورني "بيا" في شقّتي هذه لكي أشعر أنّها في بيتها. مزاج شرقيّ حادّ يدفعني إلى أن أفكّر في هذه الأمور. كان الوقت لمصلحتي اكثر منها، فأنا انتهي من دروس الجمعة ظهراً، امامي متّسع من الوقت، لأركب القطار إلى كوبنهاغن. كانت محاضراتها غالباً ما تنتهي الجمعة مساءاً. داعبتني مرة فقالت: إنّها تحاول ان تطلب اللجوء لكي ترتاح ولا تضطرّ الى العمل في بعض الأحيان.

رنّ جرس التلفون فخمّنت أنّها هي إتّصلت لتؤجّل أو تؤكّد موعد العطلة الاسبوعيّة.

فاجأني صوت آخر. كانت "انغد". أخبرتني أنّها في طريقها يوم الجمعة الى شمال الدنمارك وستمرّ بي. وددت لو اعتذر عن استقبالها، فمنعتني رغبة في المباهاة.

إنّ اهتمامي برؤيتها لشقّتي يفوق اهتمامي بزيارتها. اقنعت نفسي بأنّ الاعتذار عن استقبال الضيف وفق تقاليدنا يعدّ عيباً مهما

كانت الظروف وأني لا يمكن أن أتجرّد دفعة واحدة عن كلّ الموروث الذي أحمله. قلت لها أخيراً انّي سأعتذر لـ"بيا".

أجابتني لاداعي لأن أخبرها بالأمر. عندئذ خمّنت انّ شيئاً ما حدث ولا بدّ لي من سماعه. الحقيقة خلال الأشهر الماضية الثلاثة. لاحظت انّ هناك بروداً بدأ يجتاح بصورة مفاجئة علاقة "بغيبن" بـ"انغد". كانا لا يلتقيان إلا قليلاً، ثمّ انقطعت عن مقابلته. زرته مرّتين لأنّه ألحّ في أثناء المكالمات الهاتفية أن نلتقي ونتحدّث، وحين سألته عن "انغد" كرّر عبارته الشهيرة: النساء هنا كالطقس يا صديقي العزيز.

إضطررت لأن اختلق عذراً أمام "بيا". أخبرتها انّ مدرسة اللغة نظمت لنا رحلة عمليّة خلال عطلة نهاية الأسبوع، وربّما كانت هذه أول كذبة اكذبها على "بيا".

وصلت "انغد" الساعة الخامسة عصراً. كنت انتظرها في الشقّة. بدت رائعة في تنّورتها الضيّقة التي عبّرت بدقّة عن مفاتنها أكثر مما لو كانت عارية. منذ أول لقاء لنا يوم ذهبنا الى(الديسكو)، وخلال زياراتي السابقة لكوبنهاغن تعوّدت ان أراها(بالكابوي). قد أضخّم جمال المرأة وأغالي بوصف مفاتنها لأنّي رجل شرقيّ عشت سنين طويلة لم أعرف خلالها طعم الجنس ومفاتن النساء.

سألتها عمّاذا ترغب. طلبت بيرة. إستأذنتها في الخروج الى

السوق، ففضّلت ان ترافقني، وشرطت عليها ان أتحمّل الحساب وحدي. لديّ الآن راتب وشقّة، ولا يمكن وفق تقاليدنا العربيـة أن يتحمّل الضيف طعامه ومشروبه. خرجنا الى الحانوت القريب، ثم تركتها تختار ما تشاء ، فأنا لا أفهم أيّ صنف من أصناف الكحول، وفي المطبخ بعد ان عدنا من الحانوت القريب، عملنا معاً ورتّبنا المائدة، ثمّ جلسنا متقابلين في غرفة الضيافة.

سألتها هل حقّاً قطعت علاقتها بصديقها؟ رفعت كأسها وأكّدت لي ذلك. قالت انّ الحياة تجارب، وقد كانت تجربتها مع "بغيبن" خصبةً تعلّمت منها الكثير الكثير، وزادتها خبرة من الناحيتين الجنسيّة والعمليـة، الى ان وقفت العلاقة عند مفترق طرق فرض على كلّ واحد منهما ان يختار طريقاً آخر يراه مناسباً له. من ناحيتي أنا اعتبرت المسألة شيئاً عابراً، أمّا الذي أثارني فهو حديثها الطويل عنه. تكلمت بمرارة ، وبدت غير آسفة على فراقه. وربّما لمّحت إلى تحذيري منه. إنّ ماضيه لايهمّها على الاطلاق، ما يعنيها هو المستقبل فقط، فوفق تطوراته المحتملة تبني قناعاتها الخاصّة حول أيّ شيء كان.

صديقي السابق "بغيبن". قالت بعد جرعة قصيرة. كان في صباه لوطيّاً، ثم أصبح مخنّثاً.

بعد ذلك اعتزل الاثنين، وعاد الى حياته الجنسية الطبيعية، ولم يفته ان يعتنق المذهب العبثيّ. في الستينات، كما سمعت منها،

جذب الشباب الدنماركي تياران: الماركسي والعبثي. "بغيبن" اختار التيار العبثي، وحين تعرّف بها أخبرها عن كلّ ماضيه. عاشا فترة، ثم تغيّر قبل حلول السنة الجديدة. إقترح عليها أن يشاطرهما الفراش رجل ثالث ليعيشوا ثلاثتهم تجربة جديدة. هو معها، والآخر معه، لأنه يودُّ ان يكون حلقة وصل تخرج الفراش من رتابته المعهودة. في البدء ظنّت الاقتراح مزحة ثقيلة، أخيراً تيقّنت أنّ صديقها جادّ بكلامه. أثار تصرّفه تقزّزها، فقررت ان تهجره دون ان تفكّر بالعودة اليه مرة أخرى.

كلامها عن "بغيبن" جعلني أحسب له ألف حساب. لعلّه يعرض عليّ الأمر يوماً ما، وهو يعلم أنّ تصرّفاً مثل اللواط يعدّ عاراً في مجتمعاتنا.

سألتها بعد ان ركنتْ الى الصمت:- هل تعتقدين أنّه يجرؤ على عرض الأمر أمامي؟

قالت تهزّ كتفيها: ربّما....

كنت أحبس ضحكة غالبتني طول فترة إصغائي لها. لم تكن ضحكة خالصة فقط. كانت مغلّفة بالنفور والغثيان، وأنت تصغي الى "انغذ" تتخيّل نفسك تقف على رأس انسان يتقيّأ امعاءه، أمّا الآن فقد انقلبت السخرية الى تحدّ واستفزاز.

اجتاحتني قشعريرة، فقلت بحماس:

- سأهشّم وجهه حينذاك!

ارتسم امتعاض مفاجىء على ملامحها، واعترضت بقسوة:

- هنا كل الأمور وفق العرض والطلب. لا أحد يجبر أحداً، ولا يرغب آخر على فعل ما لا يحبّه. أيّ طلب يعرض عليك ستجيب عنه بنعم أو لا، وفي كلتا الحالتين سيحترم الطرف الآخر رأيك.

- لكنّه زار بعض الدول العربيـة وعرف بعضاً من تقاليدها.

حذّرتني مرة أخرى

-لاتظن نفسك في دولة من العالم الثالث تلجأ فيها الى العنف مع معارضيك!

رفعت قدح الشاي وهتفت: في صحــة الديمقراطيــة.

ردت عليّ بسخرية جادّة: هل سكرت؟

في تلك اللحظات توقّفت عن الشرب. قالت إنّها لن تشعر بالسعادة لأنّها تشرب وحدها. كانت تنتقد تصرّفي، فأنا في أوربا، وعليّ أن أتصرّف مثل الاوربيين. لو كانت هي في الهند لأصبحت بوذيّة، ولو تزوّجت من عربي لصارت مسلمة. من حقّ المرء أن يكيّف نفسه وفق الظروف، وإلا سيصبح ديناصوراً. كأس واحد يمنح جسدك راحة تفتقر اليها. كأس واحد لا يضرّك بل ينفعك. على أيّة حال السكر وفق الحلال والحرام أخفّ من الزنا وأكل لحم

الخنزير، وليس عيباً ان يجرّب الانسان كلّ شيء. العيب في الادمان.

- كأس واحدة تجعلك ترتاح!!

لم تترك لي مجالاًللاعتراض أو المناقشة... في النهاية لنت تحت إلحاحها. حاولت ان أنسى كلّ شيء. أنا الآن اجلس مع امرأة قويّة جميلة تنفّذ كلّ ما في رأسها من غير أن تعير العالم أيّ اعتبار. الصمت. الضجّة، الماضي، الحاضر، آسيا، اوربا، كلّ شيء يلين لقوّة هذه المرأة. كيف يستوعب بؤبؤ العين جبالاً، وبحاراً، وكوناً بكامله، لا عجب أنّ كأساً صغيراً مثل كأسها يستوعب كلّ هموم آسيا التي حملتها سنين طويلة، ومازالت تلاحقني في مأواي الجديد..

"انغذ" تثبت لي بجرأتها وصلفها أنّ الكأس الصغير كبير كالعين تماماً... كانت "بيا" ناعمة رقيقة تحمل بعضاً من ملامح الخجل الشرقيّ، وصمت المرأة العربيّة. رقّتها جعلتني أتعامل معها بلطف لانني اشعر بفتنتها اكثر مما احسّ بقوّتها أمّا "انغد" فكانت امرأة أخرى. انثى لايهمّها ايّ شيء. امرأة تحاول الوصول الى ايّ شيء ترغب فيه، فإذا ما وصلت تركت في الشيء انطباعاً خاصّاً يعلّقه بها، وقد عبّرت عن شخصيّتها بجملة قصيرة حين تحدّثت عن "بغيبن".لم أنتبه الى جملتها إلا في وقت متأخّر. قالت انّ الماضي لايهمّها بل المستقبل. كان من المفروض ان أدرك منذ البداية

انّها لا تلتفت الى الوراء، لذلك لا تهمّها شهرزاد، ولا ألف ليلة وليلة. لا تعيش الماضي البعيد المنقرض كأمّ (بغيبن)، ولا تهرب الى غير المألوف مثل الرومانسيّين، ولا تحيط الماضي باعجاب فتتحوّل الى رقّة ونعومة مثل "بيا" التي أدركت الماضي عبر الفلسفة.

المرأة التي تجلس أمامي الآن من صنف آخر. كلّ شيء فيها يختلف عن النساء. عيناها الثاقبتان. جلستها، حديثها. نظرتها وهي تغريني بالشرب: كأس واحدة. لا تخف. لم أستطع المقاومة.. فامتدّت يدي الى الزجاجة.. أدرت في كأسي بعضاً من الخمرة، ثمّ كرعته دفعة واحدة، وحين وضعت الكأس توقّفت عن التصفيق وهتفت: الآن أصبحت اوربياً... لفحت لساني مرارة المشروب. كنت اكتشف عوالم جديدة يمنحها لي الكأس الأول. المرارة تمنحني نوعاً من الاسترخاء سوى خاطر من تأنيب ضمير إرتسم لحظة وحاول افتراسي. كاد يدفعني الى البكاء. الاثم... الاثم الذي أقترفته في اوربا. رجعت بي اللحظة العابرة الى الطفولة والمدرسة الابتدائية، وقتها إكتشفت سرّ تقزّز الناس من الخمر. كان معلّم الدين يحدّثنا عن قصّة غريبة، عن رجل طيّب القلب عرض له الشيطان وأغراه بالزنا والقتل. رفض الرجل عروض الشيطان، وفي يوم من الأيّام دعاه الشيطان الى شرب الخمر. تصوّر الرجل الطيّب الأمر سهلاً، وانّه يمكنه ان يفعله بكلّ يسر فشرب حتّى سكر. رأى الزنا سهلاً فزنا، وأبصر القتل أمراً عاديّاً فقتل.. لكنّ

المشاهد كانت أقوى من هذا الخاطر الذي إرتسم فجأة وأعادني الى الطفولة، فكانت الكأس الثانية سبباً في محو كلّ شيء تقريباً حتّى تأنيب الضمير نفسه فضلاً عن هموم آسيا والشرق كلّها، ومع الكأس الثانية، كانت تبتسم، وتسألني:

- ألا تحبّ ان تسمع شيئاًمن الموسيقى؟

لاأفكّر بالموسيقى بل أهمّ بإفتراسها هي. كنت استسلم لخدر لذيذ، وأعقّب على كلامها:

- لم أبتع أيّ شريط بعد.

-الا تحبّ الموسيقى؟

لاأدري لِمَ لا أعير الموسيقى أيّ اهتمام، وهم يعدّونها هنا شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه. اكدت لها كذباً أنّي أحبّ الموسيقى، غير انّ الشقّة ينقصها كثير من الضروريّات، سأحاول شراءها كلّ شهر بالتدريج. تعليل واه يمكنها ان تصدّقه.

لا بأس عندي بعض الأشرطة في السيارة.

غابت لحظات، ثمّ عادت تحمل معها شريطاً وزجاجة. قالت إنّه عرق دنماركيّ، أمّا أنا فقد شربت الخطيئة، وتأنيب الضمير إختفى مع الكأس الثاني. يمكنني ان أجرّب ايّ صنف آخر. صبّت شيئاً من العرق في كأسي، وأدأرت لنفسها. وضعت الشريط في آلة التسجيل، فإنبعثت موسيقى هادئة. قالت إنّها لبيتهوفن. اجبت إنّها

موسيقى رائعة. رفعت كأسها وهتفت(Skal). طلبت مني أن أشرب ببطء فهذه المرة الأولى، ومن المحتمل ان اتقيّأ اذا تماديت....

كان كلّ شيء حولي ناعماً شفّافاً يشبه شلال الحرير. بتهوفن. عيناها الحادّتان. قوامها الرشيق. شخصيّتها القويّة. ذابت فيّ كلّ الأحاسيس إلاالموسيقى، وصوتها الرقيق يأتي عذباً كغيمة صيف قريبة:

- هل تحبّ ان ترقص؟

نهضت وكنت أترنّح، وكان خدّي يلاصق خدّها، وصدري يشعر بنعومة تنهّدها، وعلى الرغم من كوني أترنّح، فقد إشتعلت بي رغبة جامحة لامتلاكها.

يقولون عنا إننا نحن والسود فحول، وإلا لِمَ تختارنا فتيات اوربا. كلّ ما قيل في السفينة صحيح، وكلّ ما يتصوّره الشرق عن نساء اوربا ليس مبالغاً فيه، تؤكّده حالتي.. اترنّح من السكر وبي رغبة جارفة لألتهم امرأة. نسيت الموسيقى، والضوء الخافت، والاثم من الخمر. الشيطان لا يستطيع مساومتي بالمرة. سيخسر الرهان من الاساس. فأنا لم أبدأ مثل الرجل الطيب بالخمر لأقتل وأزني فيما بعد... بدأت بالقتل. عشت في المواضع وبين الخنادق. قتلت أولاً. أطلقت النار لأعرف من قتلت، ولأيّ غرض، ثمّ جئت الى اوربا هرباً من خطيئتي. هربت من القتل فعشت بين أحضان امرأة،

والآن سكرت. للمرة الأولى يخسر الشيطان رهانه مع ابن آدم. ربّما يكون انتصاري الليلة أول نصر تحققه البشريّة على الشيطان.

انتصاري الليلة جعلني أنسى الموسيقى، والضوء الخافت، والاثم من الخمر. غابت عن عيني كلّ صور الماضي، لتذوب في قدح صغير من العرق.إلتصق جسدها بجسدي، وكانت سورتي تزداد، حتّى نسيت تلك الليلة "بيا" نفسها.

كنت أشبه بظمآن ضلّ طريقه داخل الصحراء، فعثر على قربة ماء وحين ارتوى وقع بصره على كأس ليمون. ليس من المعقول ألا يذوق العصير. كانت "بيا" كأس الماء و"انغد" العصير، فالأمور على الرغم من السكر تبدو منطقيّة، وهي بين ذراعي. كأس ليمون يجذبني لأن أرشفه. سأعود الى "بيا" بعد أن أجرب النوع الآخر. توقّفت عن الرقص، وانصرفت الى بقيّة كأسها. فعلت مثلها، ومع الرشفة الأخيرة رحت ازداد ترنّحاً. عدنا الى الالتصاق ثانية، ثمّ تركنا بتهوفن وحده في الصالة.. وخطونا الى غرفة النوم....

إرتميت على الفراش، وكنت آخذها بين ذراعيّ وسط الخدر والنشوة، والضوء المعتم الذي إنطبع على جسدها فزاده اثارة... ثمّ اكتشفت في الصباح اننا كنّا عاريين، وأنني كنت اغفو على صدرها كطفل وديع يشعر بالامان على صدر حنون.. ولم يكن هناك من شيء سوى صداع خفيف، ورغبة يثيرها فيّ جسدها الدافىء جنبي....

- ٤ -

في الأيام التالية حاولت التوفيق بين "بيا" و"انغذ". رحت أستقلّ القطار في نهاية الأسبوع إلى كوبنهاغن، واعتذر عن الأسبوع التالي بحجج مختلفة. أصبح الكذب حاضراً على لساني. مرة سيزورني صديق، وأخرى هناك رحلة مدرسيّة إلى أطراف المدينة. أمّا "انغذ" فكانت تبتسم وتطلق نكتة تفوح منها رائحة السّخرية. أنت تشبه رجلاً متزوّجاً من إثنتين. بدلاً من أن تقضي ليلة مع هذه، وتالية مع تلك فأنّك تقسم الأيام إلى أسابيع. قلتُ أحاول أن استشفّ عوالمها:

ـ هل تمانعين أن تكوني امرأة ثانية؟

تحدّثت بلا مبالاة. قالت إنّها تنظر إلى المسألة بصفتها رغبة في الجزء الأعمّ منها. سبعون بالمائة جنس ولذّة. الثلاثون الباقية عواطف. الحبّ والجنس برأيها يدخلان ضمن حساب الأرقام. لذلك لا يهمّها أن يمارس زوجها أو صديقها أيّة علاقة مع امرأة غيرها، والدليل على صدقها مع نفسها أنّها تعرف علاقتي بـ"بيا".

لم أحاول الأعتراض على كلامها. لقد اقتحمت عليّ الطريق. امرأة تؤمن بالمفاجأة. مااللذي يحدث لو كنت صديقها وإستأثرت بي امرأة ثانية. أظنّها ترفض، أمّا أنا فكنت أعدّ نفسي رابحاً في كلتا الحالتين. "انغذ" ذات الجسد الرائع، والقدرة على اتخاذ القرار. جسدها يرويني إلى حدّ الأمتلاء، معها لا افكرّ بالنّساء. أنّها تنطلق بي، وهي تقود سيارتها، فأرى الأرض تحيطني خضراء تتوغّل بالخضرة بعيداً بعيداً، وكانت "بيا" بابتسامتها الخجولة، ووجهها الطفولي تنقلني إلى الماضي. تجعلني أغور في الأعماق، فأرى سواحل مرجانيّة، وألواناً زاهيّة. في هذه اللحظات انتزعت حالة الأعجاب التي رسمتها حول"انغذ". ما دامت تتصف بالجرأة، والصّراحة، فِلمَ تخشى من "بيا". دفعني خطؤها كما تصوّرت إلى أن اعترض:

- لِمَ اذن تصرّين على أن أخفي علاقتي بك؟

نفثت نفساً من الدخان، واطلقت ضحكة:

- سأقرص اذنك لأنّك بريء كالطفل على الرغم من خبثك!

هذه المرأة عملاق يخرج من قاروة. أقول فيك أنّك داهية. حسناء إلى درجة القرف، ولا أحد يقرف منك. لا تبالين بشيء، فأظلّ اواصل اعتراضي:

- مجرّد سؤال لأنّك صريحة مع نفسك والآخرين.

عبّرت قسماتها عن جديّة كلبوة تُستفزّ:

ـ لأنّي لا أريدك أن تفقدها الآن على الأقلّ. (ثمّ عقبت بحماس) ليست كلّ النساء مثلي، وهذه هي نقطة ضعفهنّ.

ـ ربما مررتُ بلحظة تأنيب ضمير.

ـ أنا أتحدّاك أن كنت تجرؤ على ذلك.

كانت صفعة قويّة لي. إنّها تتهمني بالجبن، وهي في بيتي. أكلتني نار الغضب، فوددت لو أصفعها. لذت بالكأس أمامي، ومعه إستسلمت للهزيمة. قلت مع نفسي: الأفضل ألا أخسر "بيا"، فأظلّ صامتاً. مهما كانت "انغذ" صلفة وقويّة فإنّي نمت معها. فسّرت ردّ الأهانة بالغالب والمغلوب. لم أجد حلاً آخر غير النّفس العشائريّ المستكن في داخلي. قفز فجأة وحال بيني وبين أيّ عمل عنيف. المرأة ناقصة ومن العيب أن نردّ على طول لسانها، حتّى حين تقتل لا أحد يفكرّ بأن يثأر لكرامته منها. استهلكني صمت عميق، ولعلّها احسّت بما يجول في خاطري، فغادرت مقعدها لتجلس جنبي، مسحت جبيني بأناملها، وهمست: هل ضجرت؟

ـ اشعر بصداع قليل.

رفعت راحتها عن جبيني، وعقبت:

ـ لكي لا تغضب أو تنزعج، فأنا أقول لك بصراحة لم أتعوّد أن يفاجأني أيّ رجل أويدؤني بعواطفه، فحين أرغب في أيّ شخص

افعل معه مثلما فعلت معك.

ألـوذ بالصداع لأهرب من صراحتها، فلا أميّز الشياطين من الملائكة. أصبحت أفقد القدرة على التمييز. أتذكّر واقعاً جديداً بدأت بالتكيّف معه. لا حقّ لي في الأعتراض، والأستحواذ. تذكرت جملة "بغيبن" المشهورة: النساء هنا كالطقس، لكنني مازلت بحاجة إلى "انغذ" فليس الوقت الآن وقت الفراق.

حاولت أن أقهرها بالصمت. شعرت بأني مع امرأةغير قادر على كشفها. اسبوعاً بعد آخر أخذت تفرض نفسها عليّ بالقوّة، فساورني هاجسٌ مبهم حولها. امرأة تهمّ بإمتلاك الأشياء، ومن ضمنها صديقها. الكون، الأرض، الأشجار، الحيوانات، الرجال والنساء كلّها اشياء لا فرق بينها سوى الأختلاف في الأشكال والحجوم، حتّى إذا سكرت انطلق لسانها بالحديث من غير تردد لتؤكّد قوّتها وصحةَ ما تعتنقه من أفكار.

تلك الليلة حدّثتني عن طفولتها. كانت طفولة مثيرة وغريبة. أمّها راقصة سويدية إلتقت بوالدها خلال إحدى السفرات السياحيّة. تزوجته، ثمّ ضجرت من حياتها معه بعد ثلاث سنوات. عمرها سنتان حين إنهزمت الأمّ إلى الولايات المتّحدة لتحقق أحلامها هناك، فتعيش مع ممثلي هوليود حيث الشهرة والمال. إنقطعت أخبار الأمّ منذ هربها مباشرة، وعاشت الطفلة مع والدها. كانت تلك الفترة على إحتكاك مباشر بأجواء أبيها ورغباته. رأته

يعيش حياته العاديّة مع نساء مختلفات، فرقدت بعض الليالي وهي تسمع أصوات شهيق تنبعث من مخدعة المجاور لغرفتها، واعتادت أحياناً أن ترى أباها يصحب إلى المنزل امرأتين تسهران معه، وتنصرفان عند حلول الصباح. حياتها مع والدها علّمتها أشياء كثيرة، وكان هو لا يغفل رغم مشاكله عنها. تعلّمت منه الشيء الكثير قبل أن تصبح مراهقة لتنفصل عنه في سنّ السادسة عشرة. لم تلتق به بعد استقلالها إلا ثلاث مرات فقط. كانت تعدّه جزءاً من الماضي، وقد تعلمت أن تعيش الحاضر، وتفكرّ بالمستقبل. أدركت، اثناء طفولتها، أنّ الماضي يستهلك المرأة، ويتحالف مع الرجل عليها. الرجل في عالم البشر يبدأ بالجنس على حين لا تهتمّ الحيوانات. من وجهة نظرها الحيوان ارقى جنسياً من الأنسان. الأنثى تدعو الذكر، الذكر يبدأ لا يهمّ مَنْ من الطرفين تراوده الرغبة أولاً يجذب الآخر بطريقته الخاصّة. نحن حيوانات لا ندرك أنفسنا، وفي عقولنا رجل رسم ملامحه على كلّ شيء. هذا ما عرفَتْه من خلال عيشها مع أبيها. وأسوأ استنتاج فرضه الرجل على الأشياء حين جعل خالقها ذكراً مثله، هو وليست هي. التوراة، الأنجيل، القرآن الكتب المقدّسة الأخرى تذكر اللّه بصيغة المذكّر، ما المانع أن يكون مؤنثاً. كانت تتحدّث بإنفعال ثم تتوقف محتدّة:

ـ اعرفت الآن لِمَ أشجعّك على أن تخفي علاقتي معك عن "بيا"؟

ـ قد أفهم قضيــة "بيــا" وفق تصوّرك، مع ذلك اعتقد أنك لا تقدرين على تجاوز الماضي لأنك رفضت عرض "بغيبن" الأخير.

ـ اووه... ومطّت تأوّههاالسابق بإستغراب وعقبت: (أنتم الشرقين سريعو الحكم أن تدينوا المرأة. ثمّ (بحزم) ما فعلته مع "بغيبن" لا يتناقض وشخصيّتي. الحيوان عندي هو المقياس لأنّه حافظ على ارتباطه بالطبيعة الأمّ. هل رأيت كلبة تمارس الجنس مع كلبة، أو غزالاً ذكراً يسافد ذكراً؟ لا مانع عندي أن أنام مع رجلين لأنني كثيراً ما أرى حيوانات مذكّرة تجتمع حول أنثاها، أو أناثاً يجذبن ذكراً واحداً كما هي حالتك... لكنني لم أر شذوذاً في الطبيعة، ومتى ما رأيته اعتنقته لأنّها أمّنا جميعاً.

ـ قد أفهم بعض ما تقصدينه فقط.

ـ ستفهمني تماماً حين تتطلّع إلى المستقبل وحده.

هززت رأسي مأخوذاً بطرحها. أقنعت نفسي أنّها دانماركية، وسأنفصل عنها ذات يوم. حساباتي تكمن بالربح والخسارة. أنا الرابح لأنّي أنام معها، فلا يهمّني أن تنام مع رجل آخر ما دامت ليست قريبتي، ولست مرتبطاً معها بزواج.

ـ ربّما أكون ماضياً.

ـ لو كنت ماضياً لوضعتك في المتحف.

بعد لقائنا الأخير تركتْ انطباعاً مبهماً. امرأة تعتنق آراء متطرّفة.

ترى أنّ المرأة الدنماركيّة مع الحريّة الواسعة التي تتمتع بها تعيش الماضي فلا تملك الجرأة لتساوي الرجل. في الوقت نفسه رفضت دعوة "بغيبن" إذ عرض عليها أن يكونوا ثلاثة في الفراش، ومن الغريب أن تجمع "انغذ" وفق وجهة نظري بين الشيطان والملاك فتصالح بينهما.

الأسبوع التالي خصّصته لـ"بيا". خلال زيارتي لكوبنهاغن مررت بـ"بغيبن". كان قد اتصل بي هاتفياً، وعاتبني على قلّة اتصالي به. الحقيقة تعمّدت أن أتحاشاه، وفضلت الحديث معه عن طريق الهاتف بعد الذى سمعته عنه من "انغذ".

لقد فاجأني بأنه فعل ذلك معها لكي يطردها. امرأة تسبب الضجر، تفرض نفسها على الأشياء بالقوة ولا تقرّ بأي خطأ فضلاً عن أنها تتنمرّ في لحظات الضعف لتثبت قوّتها. تصورته يعيش حالة عبث، لكنه قال وهو يحذرني:

- هناك مشروع يدور برأسي دفعني إلى أن أقطع علاقتي بها.

- كان من الممكن أن تنهي العلاقة معها بعذر مقبول.

أنت لا تعرف "انغذ" جيداً. امرأة تختار الرجل الذي تعجب به ولا تنفصل عنه إلا حين تقررّ هي ذلك.....

فقلت مقاطعاً:

- كان اسلوبك معها أشبه بالعقاب.

أجاب مؤكّداً بهزة من رأسه، وواصل:

ـ لا يهمني أن تكون لك علاقة بـ"بيا" أو غيرها لكني أنصحك أن تتخلّص من أيّة إمرأة حتّى ننفذ مشروعاً سأقترحه عليك.

نطت عيناي فجأة إذ تبادر إلى ذهني أنه يلمّح إلى أمر شاذ، فسارع يوضّح الأمر:

ـ لا تظنّ أنّي اتحدّث عن الشذوذ. تلك تجربة مررت بها وخرجت منها بنتائج أحتفظ بها لنفسي. أمّا المشروع الذي في ذهني فهو اقتصاديّ بحت. اخترتك لتكون معي، ومن الأفضل أن تتخلّص من النساء كما تخلّصت أنا.

قلت، ولمّا أستوعب ما عرضه عليّ بعد:

ـ متى قررت أن تبدأ مشروعك؟

ـ بعد الخامس من حزيران. أتعرف ما هي المناسبة؟ إنّها يوم الأب، وستبدأ عطلة المدارس، فلن تكون مشغولاً أنت بمدرسة اللغة.

ـ هل لي أن أعرف طبيعة المشروع.

ـ ليس الآن. سيكون أمامك شهران وهي مدة كافية تجعلك تحتكّ أكثر بالدنماركيين ستزداد خبرة باللغة، ويصبح الجنس بنظرك شيئاً عادياً، فتشعر بالهدوء أكثر وأكثر، عندئذ تستطيع أن تفكرّ

بأيّ مشروع تفكيراً موضوعياً بعيداً عن العواطف والأنفعالات.

لا تهمنّي النساء مادمت لم أرتبط بأيّة منهن. أحياناً أفسرّ الأمور بسذاجة. إنه يعرف نقطة ضعف العرب: النساء، المرأة تفرض سطوتها علينا. "بغيبن" زار بعض البلدان العربية، وإحتك عن قرب بنا. ادرك أنّ هزائمنا العسكريـة بسبب النساء. التاجر إذا خسر تجارته، من المحتمل أن يكون السبب امرأة. نحن نفقد موازيننا امام النساء، ولا نتحكمّ بعواطفنا، ولعلّه يحاول أن يؤسس، كما أظنّ، مشروعاً ويخشى أن يضع ثقته فّي ما دامت المرأة نقطة ضعفي. عليّ أن أخفي علاقاتي الجنسية عنه. سأريه أنّي قادر على أن اتحكمّ بغرائزي كما يفعل الأوروبي حين يراجع نفسه وفق عوامل الربح والخسارة. سأخفي علاقتي بـ"بيا"، أما "انغذ" فإذا أردت أن تتخلّص منها ، فحدّثها عن أشياء قذره. هكذا قال لي. إنّها مثل البكتريا بالضبط تحاربها بالقذارة. "بغيبن" نفسه حاربها بسلاح الغثيان. ستهرب منك كما هربت منّي، لا لكونها تضع في حسبانها المباديء الأخلاقيّة والدينية بل لأنها تقرف من بعض المظاهر.

قلت بشيء من النفور:

ـ إذا كنت تراه عملاً قذراً فلم مارسته؟

انتفض بحنق يردّ على تهجمّي.

ـ أنا؟ كلا!! أنا أتحدّث عن وجهة نظرها فقط. ثم إنّ ماعرضته عليها ليس شاذاً. لقد جرت مناقشة للمسألة على شاشة التلفزيون قبل عرضي الأمر بأسبوع، حضرها ثلاثة أشخاص رجل وزوجته وشخص آخر يمارس الجنس مع الزوج، وكانت الزوجة تقول أثناء الندوة، ما دام زوجها يشبع رغبتها فعلاقته بالآخر لا تعنيها.

ـ من المحتمل ألا يحدث ذلك في فراش واحد.

ـ ما الفرق؟ (قال يحرّك رأسه بدهشة) أنا عرضت عليها أن أطوّر العملية (ثم بدأ يهزّ كتفيه) أيـها الصديق العزيز إنكّ لا تستطيع أن تتخلّى عن الشرق وتقاليده تماماً. اليس كذلك؟ ولكي تطمأن نفسك، أقول لك أنّ المشروع اقرب إلى التجارة. وليكن في علمك أني لن أزعجك بمثل هذه المغامرات التي ترونها جريمة كبرى في بلادكم! هل فهمت؟

ربّما أحتاج إلى وقت طويل لكي أفهم. هذا المجتمع يوفرّ لي الأمان، وبالوقت نفسه يثير فيّ الغثيان. قلت بوجوم

ـ قد يقع سوء فهم غير مقصود احياناً.

عند الباب، قال وهو يشدّ على يدي:

ـ إنّ والدتي تهديك تحياتها.

أعربت عن اسفي حيث نسيت أن أسأله عنها طول اللقاء. عرفت أنّها بدأت تعاني من بوادر مرض خطير، لذلك فهو يريدني

أن أقف إلى جانبه حتّى يحقق مشروعه.

اكدّ لي أنّه لا يرغب في أن يعرف أحدٌ بفكرة المشروع حتى يخبرني بالتفصيلات في وقتها. شكرته على ثقته بي، وشددت على يده. خرجت من شقّته وأنا افكرّ بالمشروع الجديد الذي لمحّ عنه، أقصى ما أنصرف إليه ذهني أنّ والدته كتبت بإسمه ثروتها، ففكرّ بمشروع تجاريّ، وسأكون أنا أحد موظفيه في المستقبل القريب

* * *

وصلت إلى شقة "بيا" بعد المغرب. استقبلتني بوجهها الطفوليّ، وابتسامتها الهادئة شأنها كل مرة. كانت كعادتي بها، تذكّرني بالماضي فاطمئن إليها. إنّها تحثّ فيّ بهدوئها غريزة التفوق، والرقة... نغمة صوتها...إبتسامتها. يكاد لساني يفلت فأحدّثها عن أفكار "بغيبن" وعلاقتي بـ "أنغذ"، ثم تخونني الشجاعة آخر لحظة.

باديء الامر استغربت من شربي الخمر، ربما فاتها ان تسألني كيف إدعّيت معاناتي من أمراض معديّة. حلت بينها والدهشة، فقلت:

ـ ألا يعجبك ان أصبح أوروبيّاً؟

ـ يسرّني ان تتكيّف لكن لا يعجبني ان تصبح مدمناً.

أعادني تحذيرها الى مشهد قرفت منه أول وصولي الى الدنمارك. كنت انظر باشمئزاز الى الدنماركيين، وهم يجلسون على مقاعد

الارصفة او تحتلّ طوابيرهم محطة القطار وهم يكرعون البيرة ساعات الصباح الاولى. تحذيرها يعني أنّي سأكون واحداً منهم، والحقيقة أنّي في الأيام الاولى لتذوّقي الخمر، إندفعت أتعاطاها بشكل غير طبيعي.

ـ الحبّ هو الذي ندمن عليه فقط.

فقالت بضحكة:

ـ والكره ايضاً كما يقول هرقليطس.

شفّت كأسها ببطء، ورحت اجاريها لأنّي اعتدت على أن أشرب أول كأسين سريعاً، حتّى اذا دبت الخمر في جسدها أصبحت اكثر شفافيّة. غابت في العتمة ملامحها الطفولية، وإتسعت إبتسامتها البريئة. كنت ابتسم فتنفرج شفتاي عن إبتسامة تمتزج بصفرتها الباهتة الراحة والمرارة والخوف:

فاجأتني بهدوئها: ما الذي يضحكك.

كنت اتذكّر حوار "انغذ"، وتردّدي في قول الحقيقة. هناك امرأة اكثر صراحةمنّي. فعلى الرغم من ان الخمرة تكسر الحدود، وتزيح الفواصل إلا انّ داخلي ينطوي علىخوف يمنعني من ان اعرب لها عن كلّ شيء. العملاق الذي في داخلي يستطيع ان يحطمّ ايّة قوّة تقف بطريقة، وعند لحظة الانقضاض يتوقّف. يتراجع مثل طفل تخيفة قطّة نفشت شعرها. العملاق القوي صدمته "انغذ" لأنّه لم

يلتق امرأة مثلها من قبل.

قلت: هل تؤمنين باللّه.

قالت: باستغراب: نحن نشرب لنشعر بالسعادة لا أن اعود إلى قاعات الدرس.

مازلت مصّـراً: لكني أؤمن باللّه وأتجاهل عقابه بالوقت نفسه!!

الخوف! العقاب! أشياء تلاحقني أينما ذهبت، ولا تحول الخمرة بيني وبينها. لا استطيع الفرار منها اطلاقاً. تعلمتها في المدرسة وسمعتها من اميّ وجدّتي. كان اهلنا يصفون لنا الجنّة ونعيمها. لا تكذب. لا تزن. لا تسرق. لا تشرب الخمرة. هناك تجد الجنّة. اذا فعلت العكس سيقودك الزبانية يوم القيامة الى نار حامية. تشهد عليك يداك وقدماك وأظافرك. كلّ جسدك يشهد عليك. النار، العقاب، الجلد. صديقتي تحاول ان تخففّ عنّي الشعور بالذنب. قرأت البوذية، اليهودية، وجميع الديانات. كانت ترى انّ مشكلتنا، نحن المسلمين، تتلخّص في اننا ندرك الدين من باب العقاب. ربّما تفهم القرآن أفضل منّي.لا أدري. الاثم يتبعني الى كأسي. دخلنا الدين من باب العقاب. رأينا الجحيم، فعشنا الجحيم في الدنيا. حرب بيروت. الحرب الايرانية العراقيّة. حروب المسلمين مع بعضهم. كلّها جحيم. الجحيم يجري في دمائنا، فنهرب منه الى الخمرة والجنس، فلا نجد منفذاً للهرب.

قالت: أما زلت تخاف الدين؟

ـ الشيء الذي يحيّرني كيف اؤمن باللّه وأخالفه.

ـ على الرغم من أنّي مسيحية فأنا لا أعرف اللّه من خلال الكتب المقدّسة. اعرفه بالعقل وحده فلا أظنّ ان هذه القوّة الرهيبة التي خلقت الكون تتحوّل في النهاية الى جلآد يعاقب الناس على افعالهم!

ـ تعنين ان ليست هناك نار؟

ـ النار قبيحة واللّه جميل لن يضعنا فيها، لذلك أفعل كلّ شيء لا يضرّ الآخرين!

لحظات أبدو فيها كالابله، فأبحث كالتاجر المفلس في دفاتر قديمة عن شيء ينقذني. الجنة والنار تعيشان متجاورتين في حلمي ويقظتي، فأنتبه الى كلام "بيا" وحديثها عن الجنّة فقط. اللّه فوق الرؤى، حاولنا تدنيسه حين رغبنا لمصالح بحتة، أن ننزله من السماء الى الارض، فأدخلناه في السياسة والعلوم، وكلّ الماديات كأننا لم نكتف بتدنيس انفسنا، فاندفعنا نحو اللّه المقدّس لكي نرميه بمادياتنا. حديث "بيا" جعل خوفي ينحسر. أراني أدخل الجنّة أولاً، فأفتح متعّمداً نافذة مغلقة. أطل منها فأرى النار. بدأت أخاف. بدأت "انغذ" نفسها تلاحقني في راحة الاسترخاء كالاثم والعقاب وقصص الطفولة عن الجنّة والنار. أخاف "انغذ" التي أذا حضرت

سحرتني بحديثها وشخصيتها، وحين تغيب تصبح شبحاً أو مارداً يقطع عليّ الطريق، وليت الاثنتين تجتمعان معي في فراش واحد.

استفقت على صوتها، وهي تهمس: لِمَ تبكي؟ كانت دمعة ساخنة تسيح من عيني على خدّي. لم أنتبه اليها. شغلتني الصور عن البكاء، ومنعني الخوف من النشيج. هكذا هم الرجال يبكون بصمت. تردّد على لساني أن اقول لها ما يجول بخاطري. لا أشكّ في براءتها، لكنّي أخاف ان أعترف اليها. أخاف من صراحتي. الجرأة لا تطاوعني، وهي جانبي تضع رأسها في حظني. قلت: تذكرّت الطفولة، والعقاب والسحّر، فأبصرت كأنّي أقف أمام الجنّة. الآن انا في الجنّة معك، وأبصر من الشبّاك الجحيم فأرى ساحرة تطلّ عليّ من هناك.

أبعدت زجاجات (البيرة) عن المنضدة، وعادت لتضع رأسها في حظني:

- لاتخف، سنحرق ،عندما يأتي الصيف، الساحرات، وسأصحبك الى الساحل لترى كيف نحرقهن ونرميهنّ في البحر.

في هذه اللحظة فقط لم أعد أخشى النار. أصبحت آلة بيدي أحرق بها اعدائي. تجاهلت تماماً "انغذ" وكنت آخذ "بيا" بين ذراعي، وشيئاً فشيئاً بدأت أشعر بالراحة لهمساتها وأنفاسها وهي جنبي على السرير.

- ٥ -

تطلّعت "انغذ" اليّ بنظرة ذات معنى، وسألتني بلهجة رصينة:

ـ متى ستعود بالضبط؟

قلت بلا مبالاة:

ـ لا أدري فوقتي تحكمه الظروف.

اطلقت الكلمة جزافاً كأنّي ألقي عبئاً ثقيلاً عن كاهلي، لن تنقصني المفاجأة، وسأحاربها بنفس السلاح. الشهر الذي تلا زيارتي لـ"بغين" بذلت جهدي في ان احتفظ بشخصّيتي امامها. تحاشيت كلّ ثغرة تؤدّي بي الى الضعف والتراجع. لن أخسر أيّ شيء اذا تخليت عنها على الرغم من أنّي واقع فعلاً تحت تأثيرها. فترة غيابها لا أشعر بحنين اليها، وعندما اجتمع بها يجتاحني احساس، مجرّد احساس بأنّي لا استطيع ان أتخلّى عنها. لا اشعر بحنين اليها مثلما يحدثه غياب "بيا". لقد أصبحت تمثّل مستقبلاً حلواً يفصلني عنه ستار شفاف. ليس من العسير ان أجعلها تتكيف وفق عاداتنا. إنّها طيبة القلب تحبّ الشرق وتسافر فيه بعقلها

وعاطفتها، والأهم من ذلك كلّه انّها تحترم عاداتنا وتتصرف خلال زياراتي لها كامرأة شرقيّة، اما المشكلة التي تواجهني، فهي "انغذ" لكنّ في بالي مخططاً للتخلّص منها.

كانت تضطجع جنبي في الفراش حين بدأت الموضوع. قلت وقد أبديت أسفاًمصطنعاً:

ـ أنا آسف إذ اقول لك سأكون مشغولاً الشهر القادم. سأضطرّ الى الغياب لكي ازور بعض الاصدقاء ثمّ أحضر حفل حرق الساحرات مع "بيا".

لا أدري لِمَ ذكرت الجملة الأخيرة. لم اكن بحاجة لكي أختم بها كلامي سوى أنّها انزلقت على لساني بصورة طبيعيّة لتشكّل استفزازاً غير مقصود. لم تتوقع مني أن أفاجأها بقرار جدّي، ربمّا رأت فيّ رجلاً يطيعها ولا يتخذ ايّة قرارات منفردة

ولعلها عدّت تصرّفي الأخير تمرّداً تحاول التغلب عليه ببرودها الذي تستوعب به اللحظات الجديدة قبل ان تنقلب الى نمرة شرسة.

جلست وكان غطاء الفراش ينحسر عن كتفها وصدرها، نفثت نفساً عميقاً ثم عقّبت:

ـ هذه الغبيّة تتلذذ بحرق نفسها. إنّي أشفق عليها.

في محاولة منّي لتأجيل برودها:

ـ الفلسفة ستؤدي بها الى اكتشافات بعيدة.

استفزّتها عبارتي فاعترضت:

ـ خطأ. كلّ شيء خطأ، وإلا لم كانت النساء يقبلن على حرق الساحرات وليس السحرة؟

كنت أخاف من حديثها، الأنثى إرتبطت بالارض وفق اسطورة التوراة. كانت تصرّ على ذلك، وتعدّ طرد آدم من الجنّة بسبب امرأة خرافة صنعها الرجل، ثمّ جاءت الاديان فكرّست الخطأ. حديثها يبعث فيّ الخوف. التوراة، الانجيل، القرآن؛ كتب مقدّسة أخاف منها قبل أن أحترمها، ولا أحبّ أن أسمع أحداً ينتقصها. كان جدّي اذا سمع أحداً يكفر، استعاذ باللّه، ودفع صدقة لكي لا يناله عقاب الدارين.

دفعني الضجر إلى أن أغادر السرير. تطلعت اليّ بينما كنت أثبّت أزرار قميصي:

ـ يعني انّك ستتفرّغ بعد الحادي والعشرين من حزيران.

أكّدت ثانية بلا مبالاة:

ـ سأقضي بضعة أيام مع بعض الاصدقاء ،أمّا اذا أصّرت "بيا" فسأضطرّ الى أن أصحبها معي.

حين ذكرت اسم صديقتي للمرة الثانية أمامها، مطّت شفتيها

بحركة غامضةلا أدرك فحواها أهي احتقار أم هزء. خمنّت أنّها بدأت تزجّ نفسها في سباق جدّي مع "بيا". "انغذ" فتاة لا تقرّ بالهزيمة الا إذا تحدّاها الرجل بأشياء قذرة. هكذا قيّمها "بغيبن" اثناء لقائنا الأخير. الآن أصبح الرهان حولي بين "بيا" و"انغذ". منافستها تجهل كلّ شيء، وفي أسوأ الاحتمالات أرى الرهان حولي يتمحور بيني وبينها، فهل أترك هذه المرأة تتحكّم بي ثانية؟ لا أستطيع ان أخفي انّ ايّ شرقيّ يقدم الى أوربا يرى الجنس وسيلة انتقام. اوربا احتلتنا عسكرياً، وقضت على الامبراطوريات الشرقيّة، فرضت علينا لغاتها.. قتلت رجالنا... سلبت خيراتنا.. سلاحنا الوحيد، الانتقام عن طريق الجنس. نتهافت على النساء كالذباب.. بعد فترة نهدأ فندرك أنّ الجنس وسيلة تافهة، واكثر ما يزيد الشرقيّ عنفاً ان يرى الآلة التي إستخدمها في إنتقامه تبدأ بفرض سيطرتها عليه. كانت امي تقول: الرجل الشجاع هو الذي يقرر وعلى المرأة ان تطيعه. قلت لها لمْ أرَ والدي يضربك يوما ما. قالت معترضة نحن نساء أصيلات كالخيول. المهر الأصيلة لا يركلها ولا يهمزها فارسها. انّها تعني الجيل الجديد بالضبط. النساء اللاتي بعمر أمّي ينتقدن الشباب الذين أصبحوا مطايا لنسائهم. كانت تقرص أذني قرصة خفيفة، لتوصيني: لا تدع زوجتك تركبك، أتذكّر عبارتها عن المهر الأصيلة فأنظر الى وجهي في المرآة، ويداي تزرران القميص. ألحظ اذني اليمنى، وامامي على السرير إمرأة لا تريد أن أتركها. أعرف انّها ستعضّ عليّ كما تعضّ القطّة على صغارها،

مع ذلك فلن أكون أقلّ شجاعة من "بغيبن"، وان كنت لا أقرّ اسلوبه في طردها.

اطفأت سيجارتها، ثمّ نهضت باتجاه خزانة الملابس. وقفت أمام المرآة تتطلّع الى قسماتها. أخيراً إلتفت اليّ:

ـ أتحبّ "بيا"؟

تجاهلتْ صمتي. شغلت نفسها عن الجواب بأدوات المكياج. مرّرت القلم أسفل عينيها، وصبغت وجنتيها بلون ورديّ شفاف. نظرت اليّ بأسفل عينيها نظرة إغراء، إبتسمت إبتسامة ماكرة:

ـ أرجو ألا تكون كأنطونيو.

ـ إطمأنيّ لن أموت حبّاً ياإمرأة.

إقتربت منّي أكثر، فإجتاحني عطرها، وكان يغزوني كالسهام ليجد منفذاً في ذاكرتي المتعبة:

ـ لا أقصد الموت حبّاً، بل ان يخسر العاشق حرباً من أجل امرأة.

هذه المرأة تعرف كيف تعذّب عاشقها. ليس لها شبيه بين النساء. أسماء نساء كثيرات يخطرن ببالي، فاشتاق روائحهنّ التي تخدّر الرجل. ولادّة بنت المستكفي. كليوباتره ـجوليت. آنا كارنينا. "انغذ" تلجأ الى المعلوم والمجهول. تنبش في ماضيّ من

دون ان تدري. دخلت حرباً، عشت بين الخنادق. قتلت، وكدتُ اقتل، وقبل كل هذا فقدت امرأة كانت تمثّل لي المستقبل كلـه. آخر يوم عرِفت أننا سنفترق إلى غير رجعة، فبكت كثيراً. بدا ثوب التخرج ككفن أسود، والمتخرجون مثل غربان سود تمشي بمراسم جنائزيّة:

ـ الا نلتقي؟

ـ الحرب...!!

الحرب لعلّها تنتهي أولا.. قد أرجع اليك معوّقاً، وربّما جثّة ممزّقة... وفي أضعف الاحتمالات أعود سالماً، فأحتاج الى سنين وسنين لكي أبني لكِ بيتاً، عندئذ إسترسلت في بكائها، وعرفت بهاجسها أنّي لن أعود.

ـ انطونيو فقد الحرب بسبب الحبّ.

بضحكة مُرّة:

ـ أمّا أنا فقد فقدت الحبّ قبل الحرب. ضاعت منّي حبيبتي، فدخلت الحرب وخسرت الاثنين.

ـ تعترف أنّك كنت تحب؟

ـ انّك لا تهتمين بالماضي.

تجاهلت إعتراضي الاخير وتمادت:

- ما لون حبيبتك؟

قلت بشجاعة اذ جعلتها تقرّ بالماضي:

- أتعرفين لون الاحلام؟

تراجعت مثل قائد يرى كلّ أسلحته تتكسّر، فإنتفضت كالهرة:

- هل أحرقت معها السحّر ذات يوم؟

أطلقتُ ضحكة شماته، وقلت:

- الناس في بلدي لا يحرقون السحّر والسحّرة. يرون الماء والنار طاهرين يتدنسان بالسحر، اما الاشياء القذرة فلا تطرد الا بالقذارة.

إبتسمت إبتسامة صفراء، وعلّقت باهتمام:

- كان عليك إذن أن ترفض منذ البداية حرق الساحرات!!

امرأة عنيدة كالهرة لا تتركك مهما آلمتها. تحاول بأيّة صورة من الصور ان تؤخّر ارتباطي بها. قد تكرهني لكنّها تفضّل البقاء معي. لا استطيع تعميدها فأنا نفسي آثم، ولااستطيع حرقها لأنني إحترقت قبلها، ليس عندي الا.... وكنّا اذا عثرنا ونحن اطفال على سحر بُلْنا عليه حالاً. سمعنا ذلك من جدّاتنا وامهاتنا. النجاسة تطرد النجاسة. "بغيبن" نفسه يدرك هذا الامر على الرغم من انّه لم يسمعه من قبل. لكنّي ألتفتُ إلى غفلتي متأخراً. بالوقت نفسه أحبّها واكرهها. كلّ مايقال عنيّ انّي رجلٌ شرقيّ أحمل ظمأ

الجسد بصفتي خرجت حديثاً من الحرمان. العادات والتقاليد منعتني من متعة الجسد. جهلت المرأة تماماً، ولم أعرف النساء إلا بعد العشرين. بالتأكيد سأقع في اخطاء، أمّا "انغذ" التي ابدأ الآن خطوتي الاولى للتخلّص منها، فلها حسنات وسيئات. مع كلّ هذه الامور كنت أدرك تماماً بأنّي ساكون جلادها، لذلك نسيت ابتسامتها الماكرة، وأشفقت عليها. راودني بعض ضعفي، فأخذتها بين ذراعي، وطبعت على جبينها قبلة وداع.

- ٦ -

وصلت الى كوبنهاغن يوم عيد الاب صباحاً. إستقبلني "بغيبن" بإبتسامة متكلّفة لم يستطيع أن يخفي وراءها سحابة من الضيق إرتسمت على جبهته طول الطريق الذي سلكناه إلى المقبرة. إنّه مجرّد تقليد اجتماعي، كما عبّر عنه، ولكي يثير بعض الالتباس في ذهني، يودّ ان اعرف بأنّ الرجل قد يكون أباه، وربّما ليس هو. أمّه حكت له بصراحة يوم ألحّ عليها فطبيعة الطفل أو المراهق مجبولة على الفضول وحبّ الاكتشاف. في البدء تحاشت الموضوع، وبعد أن واصل إلحاحه كانت الاجابات غامضة سواء منها أم من عمّته. الامّ إقترنت بالاب عقب طلاقها من زوجها الاول بشهر تقريباً. تصرّفت وفق عنادها المألوف. لم تذعن حين رأت زوجها يقبل امرأة أخرى في احدى البارات ذات يوم، طلبت الطلاق حالاً، لتتزوّج من رجل آخر قبل ان ينقضي شهرٌ على الانفصال. آخر مرة التقى "بغيبن" الرجل قبل عشر سنوات. كان لقاءً عابراً، سوى كلمة واحدة قالها الزوج الأول: قل لأمّك أنّي مازلت أحتفظ بصورتها في ذاكرتي وهي تظلّ جميلة رغم الزمن والعناد!!

خادمة كليوباتره إنتقمت بطريقة تختلف عن طريقة سيدتها، وبمرور شهر واحد أو أقلّ ظهرت عليها بوادر حمل. أمّا "بغيبن"، فعلى الرغم من أنّه يشكّ في كون الرجل أباه، ويعدّ الزوج الاول أقرب إليه من الناحية النفسيّة على الاقل، لكنّ التقليد المزعوم يحتّم عليه أن يضع باقة ورد على مكان دفن فيه رمادُ رجل نسب إليه في السجلات المدنية، وحمل اسمه منذ الولاده!

يوم كنّا صغاراً دفعتنا روح الفضول البريئة الى ان نبحث عن أسماء الامهات، ففي ذلك الزمان إعتاد الناس على ان ينادوا المرأة، ويتحدّثوا عنها بكنيتها، حتى الطفلة الصغيرة اذا ما كبرت نسي الناس اسمها وعرفوها بكنيتها، ربّما هو من باب الاحترام وليس العيب، إلا اننا نحن الصغار المشاكسين، دفعنا فضولنا الى ان نعرف بعض اسماء النساء. اللعبة لا تخرج عن اطار المشاكسة، كما قلت، فحالما أنهى رنين الجرس في المدرسة يوما ثقيلاً إنطلقنا الى الخارج وبعضنا ينادي على البعض الآخر: فلان بن فلانة.. فلان بن فلانه. حذرنا أهلنا وعلّمونا انّ ذلك عيب، وقالت امرأة بإبتسامة لا تمحوها من ذاكرتي السنين: هم الاطفال أبرياء كالملائكة ينادون على الناس بأسماء أمهاتهم. لم نجرؤ بالطبع على أن نسأل آباءنا وأمهاتنا لِمَ ينادي الملائكة يوم القيامة على الناس بأسماء امهاتهم لأنّ الاجوبة على شفاه الاباء والامهات كانت تقترن دائماً بكلمة (عيب)... لذلك سألنا صباح اليوم التالي الرجل

الضعيف ذا العينين الثاقبتين والوجه الطويل النحيف الذي درسنا حصّة الدين في المدرسة. قال والدهشة ترتسم على ملامحه: ربّما تتزوج إمرأة من الرجل ثم تخونه مع آخر فيكون المولود إبن ذلك الرجل. الملائكة لا يكذبون، ولايغشون ولكي يستر الله تعالى الناس أمرهم أن يخاطبوا كل واحد بإسم أمــه، وختم معلم الدين عبارته فيما يشبه التهديد: ستكون هذه آخر مرة يجيب فيها عن سؤال من خارج الكتاب. لعل وجهة نظر المعلم صحيحه، لاسيّما أنّها أشبعت فضولنا، امّا "بغيبن" فلم يكن ستر الفضيحة يعنيه بقدر ما يرى في المسألة، وفق عبثه المعهود، منعاً للاختلاط والفوضى. إنّ المرأة يحقّ لها أن تمارس الجنس، وإن كانت متزوّجة. جسدها ملكها ولايحقّ لأيّ شخص كائناً مهما كان أن يمنعها من حرية التصّرف به، ولامجال أمام الملائكة من منع الاختلاط إلا بهذه الوسيلة.

وقال وهو يؤكدّ عبثه:

سيكون الامر مرهقاً بالنسبة لي. إنّي أشك برجلين. ربّما تكون امّي حملت بي من شخص ثالث، فكيف اعرف أنّي أنا المقصود اذا نوديت باسم ابي الحقيقي!!

لم أستشف اسفاً قي عينيه لأنّه يجهل أباه، وكان يحوّل أيّة فكرة الى خاطرة عبث، مع ذلك سألته بفضول:

-أيهمّك أن تعرف من هو أبوك؟

مطّ شفتيه بصورة لا مباليه:

هنا الامر لايهمّ. الطفل يلتصق بأمــه أكثر من ابيــه.

وقف عند فسحة مستطيلة يحيطها من ثلاث جهات أشجار الورد البريّ، وكانت ذاكرتي محشوة بأشباح المقابر في بلدي ورائحة شجر الصّبار. الاموات أنفسهم تحوّلوا الى أدوات مخيفة. لست اذكر بالضبط متى نصحني الناس ألا أمرّ وقت المغرب بالقبور، وألا أقضي الليل هناك، وبين المقابر الموحشة المقفرة بذاكرتي والمقبرة الجنّة، إنتبهت الى صوت "بغيبن" ينتشلني من لحظة الصمت والذهول:

- هذا يكفي....

ألقى برفق حزمة الورد على قبر والده، فسألته بفضول:

- الا تزور والدتك؟

- من أجل ذلك استدعيتك، وستعرف كلّ شيء في المنزل.

أحسست أنّي ربّما أخطأت، فقلت:

- كان من المفروض ان أجلب وروداً معي لوالدك.

قال بعدم إكتراث: باقة واحدة تكفي. أترى ذلك الرجل (اشار باصبعه نحو رجل في الستين يجلس قرب باب المقبرة أمام دكّه

الزهور) ثمّ أردف: سيجمع كلّ الورود من على القبور في المساء، ويبيعها صباح اليوم التالي لأناس آخرين.

لاشيء يبعدني عن مشهد الرجل سوى الماضي. فلا سيء هنا غير النقود. اما أشباح المقبرة الشرقيّة، فتحدّثني عن رجل يسرق أكفان الموتى ليبيعها.

- هذا أفضل على أيّة حال من سرقة الكفن!!

- رجل المحرقة يحصل على أشياء ثمينة أكثر مما يحصل بائع الورد.

قال عبارته، وكنّا نخطو باتجاه الممرّ المعبد الى الباب الخارجي، وقد إلتفت مرة واحدة نحو رجل الزهور كأنّي لا أحبّ ان أراه مرّة أخرى.

في البيت حدّثني بغيبن عن مشروعه. أشياء جديدة سمعتها للمرة الأولى. المشروع مفاجأة لي. مادمت في اوربا فعليّ ان أصدّق اذنيّ وعيني اذ تسمعان وتريان صوراً غريبة لم آلفها من قبل. الحواس تستعدّ لاستقبال أيّة مفاجأة لكي لا تشعر بنشاز أيّ تصرف أو إقتراح. بعد أن إلتقطنا أنفاسنا، وتحدّثنا عن أمور عامّه، وشربنا أكثر من قدح، قدّم اليّ "بغيبن" اقتراحه... على العموم أنا حرٌ في القبول أو الرفض غير أنّي يجب ان أحتفظ بالسرّ، وقد وعدته بذلك. قال إنّ أمّه أصيبت بالشلل من أسفل السرّة الى

القدمين، وهي تحتاج الى رعاية دائمة. رفضت نقلها الى دار العجزة بحجّة أنّ هناك بعض الممرضات الخائنات اللاتي إشتركن قبل مئات من السنين للاطاحة بسيدتها، وضعت في هاجسها احتمالاً أنهــن يعرفنها، لذلك إضطرّ إلى أن يخصص لها ساعة مساءً كلّ يوم من راحته، يحضّر لها الطعام، ويسقيها الدواء. الطبيب أخبره انّها سوف تعيش سنين طويلة شرط أن تتابع دواء معّيناً كتبه لها. ربّما يمتدّ بها العمر عشر سنين أو اكثر، وهو الوريث الوحيد لها. سيرثها اذا ماتت. ملكيتها بحدود مليوني كرونة من ضمنها الشقّة وبعض المجوهرات، وهو شاب يحبّ السفر والنزهة، فعلام ينتظر عشر سنوات ليصبح عمره في الخمسين.. شيء غير معقول.

لكنّ اقتراحه، وإن انطوى على تخطيط واحتراز دقيقين، كان مفاجأة لي، لا سيّما أنّه إلتفت الى التقويم الصّغير المثبّت على الحائط أسفل اللوحة الاسبانية.. واشار الى الايام بسبّابته.. ستة عشر يوماً من الآن الى موعد الاحتفال بحرق الساحرات. سوف تحلّ اجازته السنويّة قبل المناسبة بأسبوع، وأفضل وسيلة لتجنّب المشاكل أن يسافر الى البرتغال.. امّا أنا فسأنتظر الليل. لن أضطرّ الى أيّ ضوء ففي الصيف تصبح ليالي الدنمارك غير معتمة. أدخل فأجد أمّه راقدة، عندئذ تكون مهمّتي ان أضع في كأسها قطرات... ثمّ أخرج كأنّي لم أفعل أيّ شيء، وستكون حصتي من الميراث بنسبة عشرة بالمائة!

مائتا ألف كرونه.. أستطيع ان أؤسس بها مشروعاً جيداً. أهاجر الى كندا. أسافر الى دولة عربيّة، فأفتح حانوتاً وأشتري بيتاً. هناك الف "بيا" تنتظرني، فلِم أنتظر حتّى أصبح في الخمسين من عمري، ومع ذلك فإنّ هناك سؤالاً يلحّ عليّ فيكاد يشوش ذهني اكثر من الخمرة:

- الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو لِمَ اخترت هذا اليوم لتحدّثني عن المشروع؟

- هل تظنّ أنّها عقدة، أو أنّي أحاول أن انتقم لأبي، بل إجازتي السنويّة هي التي حدّدت زمن الخطّة، اذ من المنطقيّ ان أكون ساعة الانتحار في رحلة جماعيّة خارج الدنمارك.

أصبحنا نتحدّث عن العقل والعاطفة. كلامنا يشبه حديث رجال الاعمال. لا يهمّني كلّ شيء، عليّ أنْ أطوّر سلاحي للانتقام من اوربا تلك التي إحتلت أرضنا نحن الاسيويين وقتلت أهلنا. لا يرضيني أن أكتفي بالجنس فأجعل امرأة تتلوّى في الفراش وتتأوّه. مثلما بدؤونا بالشرّ من دون ان ندري نبدأ معهم. سأحقق ذاتي عبر النقود، وربّما يحالفني الحظّ، فأجدها منتحرة قبل ان أنفّذ الخطة:

- هل تحقد عليها؟

كأنّ السؤال إستفزّه:

- كلا بالعكس. أنا أحبّها كثيراً، ولا أحقد عليها.العمليّة تشبه انساناً أصيبت يده بمرض خطر، سيقطعها بالتأكيد قبل ان ينتشر المرض في جسده كلّه.

رأسي يدور، والمفاجأة تستوعبني تدريجيّاً. شيئاً فشيئاً أذعن للطلب، بعض الامور تختلط بذهني فأكاد أعجز عن تمييزها لا عن غباء أو جهل، لكني بحاجة الى وقت طويل لأفهم اوربا، فربّما لا تكفي جلسة قصيرة لتزيل عن ذهني اللبس. ذهولي يدفعه الى ان يسألني متطفّلاً:

- أتعدّ الامر مزحة!

- كيف خمنّت!

- رأيتك صافناً.

قلت مع جرعة صغيرة:

- الذي قفز الى ذهني حوار حدث بيننا ذات يوم حول الحروب والقتل.

- لعلّك ترغمني على أن أعدّك ساذجاً (اطلق ضحكة قصيرة، وأدار بعض الخمرة في قدحه ، وواصل) . انا أرفض القتل الفرديّ والجماعي . ايّ قتل ! القتل بلا سبب ، لكنني حين اسمع انّ ممرّضة سويسرية، كما حدث قبل ايام ساعدت مريضاً معوقاً فاقد اليدين والرجلين على قتل نفسه. أؤيدها لأنّ الموت هو العلاج الوحيد لمثل

هذه الحالة.

كنت أنصت اليه كأني تحت تأثير منوّم مغناطيسي، وكان يتحدّث عن فكرته بحماس رغم مقاطعتي:

ـ الطب يفترض وجود علاج في المستقبل

ـ مجرّد فرض بعيد عن الواقع. خذ حالةً مثل امّي.. شلل.. ضعف في البصر بسبب السكّر، شبه انفصام... أنا شخصّياً أتعذّب يومياً بسببها، لذلك فالموت أفضل علاج لها.

لاشكّ بعد هذا أن "بغيبن" يمزح معي، ولا أشكّ في أنّي سمعت الحديث وعقبت عليه وانا صاح. الشرطة نفسها لن تشكّ. يظنون المرأة إنتحرت بعد إحباط. إبنها في البرتغال. كلّ الادلة تنفي وجود فاعل، هذا كلّ مافي الامر، عدا شك ضعيف عجز السكر عن ان يخفيه، فانطبع في عينيّ المحمرتين، وحين إنتبه الى حيرتي عقّب:

ـ لا تظنّ أنّي عاجز عن اختيار آخر. إخترتك لأنّك بحاجة الى ان تبني نفسك. تستطيع بعد ان تأخذ حصتك أن تسافر الى ايّ بلد، اما اذا قررت ان تستقرّ في البرتغال لتستثمر نقودك فسأكون في عونك.

ـ ستستقرّ في البرتغال اذن؟

ـ احبّها كثيراً، بل استطيع أن أتحدّث البرتغاليّة، وقد فضّلتها

لرخصها وسطوع الشمس فيها.

شيء مضحك وإن إتصف بالجدّيّة. سخريّةٌ يغلّفها إتزان. هؤلاء ينهزمون من الضباب الى الشمس. العالم مقلوب كما يقول مجنون حكيم قابلته قبل هجرتي. من المفروض ان يُخلق العربي في القطب، وأهل القطب في المناطق الحارّة. عالم مقلوب، وأنا وسطه أبحث عن الضباب في مدن الضباب.

- سأرحل الى كندا لأنني هناك أحصل على الجنسيّة بسهولة.

أصبح الغنى قاب قوسين أو أدنى منّي. فكرة صافية تلّح عليّ. لِمَ أفضّل ان أكون لاجئاً، ولا أمل ببصيص ضعيف في النفق المظلم الذي قدمنا منه وسميناه شرقاً. الحكومات الاسيوية مثل "أنغذ"، لا تطردها إلاالنجاسة. اذا وجدت سحراً بُلْ عليه، أمّا الحكومة الحاليّة فلا يطردها إلا من هو أكثر قذارة منها. العهد الملكي سقط بعهد أتعس منه، والشيوعيون رحلوا بفعل من هم اوسخ. القوميون سقطوا بإنقلاب بعثيّ. قالت احدى العجائز اثناء المعمعة: نجاسة تطرد أخرى. كوامن الطفولة والمراهقة، تستفزّني، فأجد انّ ما إكتشفه الاميّون الشيوخ والعجائز في قريتنا يؤمن به الاوربيون، فلِم أظلّ لاجئاً، ما دامت أبواب الثروة مفتوحة امامي، وما دام من يأتي ليحكم بلدي لا يكون بالضرورة أفضل من غيره، سأظلّ لاجئاً الى أمدٍ بعيد. قد أمنح الجنسيّة الدنماركيّة أو لا، في حين أرى عرضاً يقدّم اليّ من دون جهد. جيوبي ستمتلىء بالنقود، وامامي عِدّة

جنسيّات: كنديّة امريكيّة استراليّة....

هتفت أعماقي، كأنّها تكسر صمتاً خيّم كالأطلال على صدري.. نعم.. ثمّ رفعت كأسي، وهتفت وأنا أهزّ رأسي (SKAL). رفع كأسه وهتف(SKAL) ثمّ علّق:

- أتعرف ماهي حسنة "انغذ" الوحيدة؟

اجبت على البديهية: علمتني الخمرة!!

- حزرت!! إنّها تصادق الرجل وتظلّ تراقبه حتى تكتشف ماذا يكره، فتجبره على فعله.

قلت وأنا أنفث نفساً طويلاً:

- من حسن حظّي أنّي تخلّصت منها.

- أشكّ في ذلك!!

قالها جازماً.

- هل تعتقد أنّها سترجع اليّ؟

- في حالة واحدة فقط.. القذارة.. إطلب منها وضعاً غير طبيعيّ، ستنظر اليك باحتقار وفق فلسفتها ثمّ تنفْصِلُ عنك!

ذلك المساء سهرت الى وقت متأخّر. سكرنا، وتحدّثنا أحاديث مختلفة، ومتشعبة. شربتُ كثيراً، وشعور خفيّ يدفعني الى ان اقتل

الوقت بالحديث تارة والصمت أو الاصغاء الى ثرثرة "بغيبن" تارة اخرى. تبخرّت من ذاكرتي كلّ الخطايا. نسيت الاخبار التي سمعتها عدا خبر واحد هو أنّي أصبحت لاجئاً منذ فترة طويلة. كانت ام "بغيبن" وصيفة عند كليوبتره، فأصبحت الآن امرأة أخرى. ماذا كنت ياترى من قبل؟ من الافضل ان أختار لقب قائد عسكريّ أسـره الاعداء في معركة ما بسبب خيانة، فاضطررت الى الهرب. أصبحت لاجئاً، وعليّ ان أتخلّص من لقبي الجديد بأيّ ثمن، ولا أريد بعد ان أدركت نتيجة خسارتي الاخيرة ان أستفيق من حلم لذيذ عشته البارحة!

في الصباح أحسست بصداع خفيف يكاد ينفي حلمي اللذيذ. مع كلّ إحتمالات الخوف كنت مصمماً على تنفيذ خطـة "بغيبن" الذي اقترح عليّ أن أظلّ مع "بيا" كي لا أشعر بالوحدة الى ان يحين موعد تنفيذ الخطّة. إتفقنا على ان يسافر هو قبل يوم الحرق.. حرق الساحرات... وعاهدته بعد أن سلمني نسخة من مفتاح الشقّة وزجاجة ما، على أن أنفّذ الخطـة المقترحة بعد سفره مباشرة.

- ٧ -

كنّا في طريقنا الى الساحل لنرى حرق الساحرات، ولم اكن لأنتبه الى عبارات "بيا" حول المهرجان العام الذي سأشهده للمرة الاولى على الساحل. كان ذهني مشغولاً بالخطّة الجديدة. إنّ امامي آفاقاً واسعة تجذبني، ومدناً مبهمة توقّفت عند فتحها من قبل، اليوم أصبحت أحاصرها، وأوشكت ان أدخلها. الساحرات قبلي إعترضن أبطالاً، وتنبئن لهم بمستقبل غامض، وليس من ساحرة بعد اليوم تتنبّأ بهزيمتي.

ـ أراك شارداً.

ـ اشرد؟ اين أذهب؟

افكرّ، وأنا معها، يدي بيدها. عيناي تبحران في وجهها البريء، وأشياء ثانية تقع عيناي عليها مصادفة فتثير اهتمامي. افكرّ بأنّي سأكون قاتلاً يوم غد. كان ذهني منصرفاً الى ما بعد تنفيذ العمليّة. المال، الهجرة. إضطررت أن أفقد كلّ شيء. إنهزمت من بلدي، وسوف أعود اليه بعد سنوات كسائح حاملاً مبلغاً من المال

وجنسيّة جديدة. أفرض نفسي على من طردوني بالقوّة. المستقبل يرتسم في ذهني خلال لحظات. زوجة، وأطفال، ومشروع، وهي ماتزال تلحّ عليّ بأسئلتها التي عجزت عن ان تنتشلني من غيبوبتي:

- هو البحر. هل شردت مع البحر؟

- البحر واسع لكنّه أصغر حجماً من المستقبل. هل تعرفين شيئاً عن المستقبل.

- بعض الاشياء.

- يقولون الفلسفة أُم العلوم.

- كانت، وربّما تعود!!

سكتت فجأة، كأنّها شهرزاد أطلّ عليها الصباح، وكنّا في هذه اللحظة الداكنة نقف على المنحدر، ثم نهبط معه لنجلس على رقعة خضراء، وبالقرب منّا راح شباب وفتيات يلقون بأكداس من الحطب جنب دمية خشبية قبيحة الشكل، فتجمّع كدس الحطب فيما يشبه التلّ الصغير.

نظرت الى ساعتها، وأشارت نحو قرص الشمس. قالت: بعد نصف ساعة بالضبط يحرقون الساحرة. هذا هو أطول يوم في الدنمارك، وأنا بانتظار شيء ما يخرجني من قلقي. كنّا قد أحضرنا معنا بعضاً من علب (البيرة) الباردة. الدنيا كلّها من حولنا سكرى حتى الشمس البعيدة بدت هادئة فوق البحر، كأنّها نعسى غلبتها

حالة سكر فإنزلقت بحذرها قليلاً قليلاً وراء البحر.

كنت أتطلّع بوجهها محاولاً أن أتغلّب بالسكّر على قلق بدأ يكبر رويداً رويداً. هذا القلق بدأ منذ الحديث عن محاولة القتل. كان خفيفاً طرده السكر في اليوم الأول لحديثنا بعد العودة من المقبرة. ربّما وجدت الايّام الستة عشر كافية لتنقذني من القلق. إلتفتّ الى الزمن فأخفيت بامتداده قلقي، وكلّما مرّ يوم ونقصت الايّام كبر خوفي. هذه الساعة لم يبق من الزمن الطويل إلا ليلة واحدة فقط، كأنّ الفكرة الجديدة فكرة القتل، دفعتني الى ان أتمثّل الساحرة القبيحة بصورة أُم "بغيبن". انا رجل لا تخيفه ساحرة. ذلك ما أوحت اليّ به الشمس الغاربة حين استهلكتها عيناي الحائرتان. لو لم أكن رجلا لما كلفت بمهمة قتل، والساحرة مهما تكن فهي أنثى أستطيع ان أتغلّب عليها بسهولة. الدور لنا نحن الرجال الآن، لأنّ المرأة وفق تاريخها الطويل، وما أشيع عنها من ذكاء خارق، غلبت الرجل مرة واحدة لا اكثر. المأساة المضحكة حدثت في الجنّة. هنا على الارض يأتي دور الرجل وحده، فالنصر بيده لا بيد المرأة، ولن تنفع محاولات السحر والطرق الملتوية معه.

اقنعتني الفكرة الجديدة بمشروعيّتها. عندما سمعتها من "بغيبن" كنت في حالة سكر، فقضيت معظم الايّام سكران قبل أنْ آتي الى هنا، شيء واحدٌ غفلت عنه في الايّام الاولى لرسم الخطة- خطّة القتل - وذكّرني به شكل الساحرة الملقاة المضطجعة جنب الحطب.

لِمَ يَحرق الناس الساحرات؟!! "بيا" نفسها تعترف بأنهنّ شريرات يستحققنّ العقاب. لا بدّ أنهنّ عملن اعمالاً شريرة حســب وجهة نظري. قتلن وزنْيـن.. بالتأكيد أم "بغيبن" مارست الزنا، وبعُزْف الشرف والاخلاق لن أكون قاتلاً إطلاقاً. الفكرة الجديدة ألحّت عليّ بسطوع حيث دفعت أمامها خطيئتي القديمة، كأنني اذا اقترفت خطيئة أخفيتها حتّى تلحّ عليّ فكرة إثم جديد أقوى من الاولى، عندئذ لا أجد حرجاً في إعترافي بالجرم السابق.

الحذر يجد لي عذراً، فيزول عنّي بعض القلق... مهما يكن فسأكون قاتلاً. رجلٌ ذو بأس تغلّب على هزيمته في السماء، فإخترع وسيلة ليثأر.... ولن تتمكن "انغذ" مَن اذلالي. هكذا كنت أحدّث نفسي، وانا أتطلّع بوجه "بيا" البريء تارة، وقرص الشمس الشاحب تارة اخرى، ومع علب البيرة الباردة، وإنحسار الوقت نحو الغروب، ثمّ استعداد الحلقة لحرق الساحرة سألتها:

- ألم يكن هناك سحرة؟

السؤال نفسه طرحته على "انغذ". إنّها لما تزل تحتلّ جزءاً من تفكيري يمتدّ مسافة قصيرة بين المستقبل والقلق:

- أووه عزيزي. أبعدناالآن عن الفلسفة. أظنّك تعرف الجواب مقدّماً.

- أريد ان أعرف.

- يظهر ان الخمرة تمنحك بعداً شاسعاً من الخيال.

- أتظنين أنّي سكران؟

تصمت "بيا" كأنّها تقول (أنت اعرف بنفسك منّي). لا جواب لسؤالي حينئذٍ أتمتم مع نفسي! الدنيا كلّها سكرى حتّى أنت.

أخذ الرجال والنساء يشكّلون حلقة حول تلّ الحطب والساحرة. عاودني القلق ثانية، ولم تستطع الشمس السكرى ان تمحوه. كان الحادث الجديد يدفعني الى ان أعترف. سأعترف لها بكل شيء غداً لأثبت لها أنيّ غير سكران، مادمت أخوض تجربة فلا تهمني "بيا" أو "انغذ". على المدى القريب أصبح مليونيراً بإمكانه أن يجد أيّة امرأة تخطر بباله. لقد أطفأت ظمأ سنين طويلة عشتها محروماً. أطفأتها خلال أيام قليلة، وكم هي المرات التي نجوت منها. حرب الخنادق. الهرب خارج الحدود. السفر الى كوبنهاغن. عليّ ان أعترف لها. أتوقّع ان تشمئز منّي، لأبصر في خيالي، خيطا واهياً أكثر رقّة من غروب الشمس. تطلعت بعينيها، وهي تجذبني لنخطو نحو الحلقة الراقصّة:

- "بيا"... أتعرفين أنّي خنتك مع "انغذ".

فاجأها قولي، فتراجعت منبهرة الانفاس. بدت كمهرة كبت لسوء طالعها، غير أنّها أقالت عثرتها بأقلّ من لحظات.. ليس من

السهل ان تتلاشى الدهشة حول عينيها بصورة تعبرّ عن تماسكها لحظة الصّدمة. كانت تتطلعّ في عينيّ، فأهرب من إنزعاج رصين يخيمّ على أعماق تأمّلها. صمتت لحظات تستعين بالصمت على الضجة وقسوة المفاجأة لتنتشل نفسها من هذا الجوّ المدحون، لكنّها أبقت يدها في يدي. شيءلا يُصدّق قطّ... ستبكي أو تثور...ربّما تدير وجهها عني. لحظة المواجهة أَلِفت كل الاحتمالات... هزّت رأسها بإبتسامة بريئة. فران الالم على شفتيها أشبه بصفرة شاحبة، ونظرت في عينيها عتاباً شفافا:

لأنّك تحبنّي إعترفت لي، ومع ذلك فأنا أشعر بنوع من الحزن.

ـ آسف "بيا" أسف.. لم أستطيع ان أقاوم إغراء الساحرة.

ـ لو اكتشفتك بنفسي لما غفرت لك.

وددت ان تجذبني من يدي، لتتجه بي الى البحر، فنرمي جسدينا فيه. نظلّ نطفو على سطحه فوق ظهرينا من غير أن نصل الى جرف كي نتحرر ممّا يحيط بنا، أو تصرخ بي محتدّه كأنّي ملك من أملاكها لا تفرط بأصغر ذرّة منه.. المرأة مرأة والرجل رجل. كانت زبيدة تعرف انّ هارون الرشيد يضاجع جواري ونساء غيرها، مثل حكايتي مع "بيا" تماماً. زبيدة لم تخن الخليفة. لو إكتشفته يخونها لخانته. وها انا أفعل مثل اسلافي، أخون ثمّ اعترف. المهمّ ان تعرف المرأة عن طريقك انت أنّك تخونها، عندئذ

لا تخونك، ولا عبرة بعد ذلك بالنتائج.

ـ آمل الا أكون آلمتك كثيراً.

ـ مهما يكن فأنا أحبّ الرجل الشرقيّ لانّه لا يجرؤ ان يخفي خطيئته مثل الاوربيّ.

كلامها لايشمل الحقيقة كلّها. أعترف لها بالنصف فقط، كالشمس حين يطلّ نصف وجهها من الغيوم. على أيّة حال يبقى الحقّ معي، لأنّي اذا كتمت الامر الآخر ـ أمر القتل ـ فهو لا يعنيها:

ـ قد تظهر الشمس بوضوح في كثيف الضباب.

عبّرت عن أسفها بهزّات من رأسها، وعّلقت:

ـ من الطبيعي أن يلهث الرجل وراء غرائزه، وهذا ما إعتدنا عليه نحن النساء،

كنت أنصت الى حديثها وأنا أغالب دمعة ساخنة تكاد تسيل من عينيّ. دمعة لا استطيع ان أحبسها طويلاً، أو أغفلها لحظة ما... شعرت بأنّي أقف كالتلميذ المذنب الذي يقف أمام استاذه. من السهل جدّاً ان ألقي عبئاً ثقيلاً عن صدري لأستريح، فلو كتمته لكان من المحتمل ان يصبح حجر عثرة بيني والخطّة الجديدة.

وحين صمتت شخصت عيناها نحو الشمس الآفلة. ملامحها براءتها، إبتسامتها، وكلّ قسماتها تحاول ان تعبّر عن شيء غامض

لا أستطيع سبره، ولا تستطيع هي ان تجتازه إلا بالصمت. لحظتها ,ضعت رأسي في حظنها، وتطلعت بعينيها... لكنّ السكون لم يستمرّ طويلاً، فجأة في لحظة السكون التي انتهت مع غروب الشمس، فرفعت رأسي عن حضـنها برفق:

ـ ألا تحب ان تشارك في حرق الساحرة؟

كان صمتي يوحي بالايجاب. إتجهنا نحو الحلقة الصاخبة... هناك تشابكت الايدي. فدلفنا مع مجموعة شكلت حلقة واسعة حول كدس الحطب ودمية الساحرة، وفي غيبوبة الشمس البطيئة، انبثقت النار. توهّجت بالحطب، وتطاير من اعلاها دخان، فرحنا نلفّ وندور وسط الدائرة، نتابع النار ونغنّي...

نحن نحبّ ارضنا
حينما بار كها الرب
اشعلوا النجوم فوق الاشجار
مع اشراقة في كلّ العيون
حينما يعمّ الربيع كلّ الطيور
حول الحقول وعلى السواحل
دع الكلمات تحيي إرتعاشتها كل الناس
دع الكلمات تطفو مع الحياة
نحن نحبّ ارضنا

بعد دقائق حمل أحد الراقصين الساحرة من رأسها، وقذف بها وسط اللهب، إستمرت الحلقة وترقص وتغنّي. رددنا الاغنية ذاتها.

بدأ التمثال يتآكل بين اللهب، واذ كادت النار تأتي عليه ...تلك اللحظة اندفع راقص آخر وحمل الدمية من طرف لم تصل اليه النار، ثمّ اتجه الى البحر، ورماها في الماء...

وعندما انتهت المراسم بدأت النار تخفت... ومع خفوتها ذابت الضجّة، وأخذت تتلاشى كاللهب·والدخان، وفي أثناء ميلان الأشياء للهدوء، هدأ الراقصون ليتّجه كلّ واحد منهم الى المرج الأخضر الندي أسفل المنحدر المحاذي للرصيف...

كانت "بيا" تقودني الى مكاننا السابق..فاضطجع كلّ منا على ظهره...رحنا نتطلّع في السماء الصافية...نهيم النجوم والزرقة الممتزجة ببياض الليل..كانت أنفاسنا تتلاحق من شدّة التعب والرقص...لكنّ يدينا ظلّتا متشابكتين كأننا نحاول أن نسافر بنظراتنا الى الزرقة القريبة من رؤوسنا ونحن متلاصقان........

لم تكن هناك عتمة تامّة حين وقفت بالباب، وكنت قضيت النهار كلّه خدراًحتّى اتغلّب على أيّ قلق يعتريني، فساعدتني نشوة السكر على تجاهل أيّ قلق أو تأنيب ضمير... اقنعت نفسي بالحرب. شخصت أمامي ايام صعبة عشتها في المواضع، وبين الخنادق، تلك الذكريات صرفت ذهني عن بشاعة ما أنا قادم عليه. كم قتلت في الحرب. أطلقت الرصاص بجميع الجهات، ودخلت اشتباكاً بالسلاح الابيض... العمل الآتي لا يعدّ أمراً ذا شأن اذا ما قورن بالاحداث العظيمة السالفة. خاطر الحرب الماضي، وتفوّقي

فيه خيمّ غلى فكرى، فأنساني الوازع الداخلي تماماً.. لقد صرفتني حالٌ من عدم الاهتمام واللامبالاة، وارتسمت امامي صورة واحدة هي انّ عملي سيخلّصني من التشرّد، ويحررني من كوني مجرد لاجيء الى مجتمع أفضل أحقق فيه هويتي، وأبني مستقبلي الجديد، فلستُ الآن اكثر من لاجيء أحمل ورقة مرور لا تعترف بها معظم دول العالم، من حقّي ان أفعل ايّ شيء كي أحقق ذاتي، أما أم "بغيبن" فليكفيها أنها عاشت اكثر من سبعين عاما قضتها بالجنس والفرح والسفر!!

أدرت المفتاح بالباب ودخلت بحذر. كنت لا أتبينّ طريقي في الدهليز شبه المعتم، وحين إقتربت من باب الغرفة إنكشفت العتمة نوعا ما. زاد من طمأنينتي السكون الرابض في البيت حتى خِلت الهدوء نفسه هو تلك الضحيّة التي أبحث عنها، فوقعت بين يدي ولم تبد أيّة مقاومة. كلّ شيء يوحي بالثقة والامان. العتمة الخفيفة، السكون، الصمت المطبق، ولاشيء سوى ان أتقدّم، وأنهي الامر بلحظة واحدة فقط.

كانت زجاجة السم بيدي، وسأتصرف وفق احتمالين. أن أجدها نائمة فأضع في كأسها قطرات من السم أمزجها بالدواء، عندئذ ستصحو صباح اليوم التالي فتعرف أنّ إبنها وصل متأخراً، ولم يرغب في إزعاجها، فعبّر لها عن تعاطفه معها، فأعدّ الدواء، وغادر شقتها لإرتباطه بعمل اليوم التالي، أمّا إذا وجدتها يقظة،

فأخبرها أنّ ابنها سافر وكلّفني برعايتها... ثمّ أغادر الشقّة حال تأكدّي من موتها، وفي كلتا الحالتين اكون قد تركت زجاجة السمّ على المنضدة الصغيرة جنب زجاجات الدواء المختلفة بعد أن أزيل عنها كلّ أثر... خلال الهاجس السابق، وفي اثناء خطوي الى الغرفة الاثرية.. هناك حدثت المفاجأة، كأنّ التاريخ القديم نفسه إنتفض بوجهي، فأطار نشوة السكر من رأسي. أمرٌ اكاد لا اصدّقه... كانت يقظة، وقد أسندت رأسها الى حافة السرير، وراحت تئن بصوت ضعيف:

ـ أهكذا يا "بغيبن" تتركني والقذارة تحتي؟!

لكنّها توقفت عن الكلام بعد أن وقع بصرها عليّ، فأسْرعتُ الى زر المصباح. وضغطت عليه بإصبعي. رأيت وجهها يتغيرّ، كأنّها وقعت تحت تأثير أمرٍ مهم يحتاج الى توضيح:

ـ "بغيبن" إضطرّ الى السّفر فكلفني عبر الهاتف أن أتولّى شؤونك فترة غيابه، لذلك آسف لتأخّري.

قالت بصوت ضعيف مؤثّر:

ـ اووه ياصغيري العزيز لم أنم طول الليلتين السابقتين فالقذارة تحتي تضايقني. كأنني ألقيت ثقلاً عن صدري. أردت أن أقتُل فوجدت القدر يخدمني ليشهد ببراءتي. قد تكون الضحيّة أقوى منّي لأنّها تعيش الماضي. لاأدري كيف أوازن المعادلات لأنّ

صحوة العجوز قلبت خطّتي رأساً على عقب. ربّما لو دخلتُ وهي نائمة لدسستُ لها السمّ مع الادوية. يقظتها ونظراتها الكسيرة غلبت إرادتي. صحيح أنّي إعتدتُ القتل في الحرب من قبل، لكنّي لا أنكر أنّي كنت مضطراً. واجهت جنوداً ومقاتلين لايقلّون قدرة عنّي، ولو لم اقتل لقتلت. أول خاطرة اقتحمت خيالي وهي تظنني إبنها جعلتني أنسى القتل وابنها البعيد، وكدت أنسى القنينة ايضاً، وتلاشى من ذاكرتي المال والامل والهجرة الى بلد آخر:

- هل يمكنني ان أفعل ذلك؟

إنحنيت على جسدها نصف المشلول... لم تكن ثقيلة. صورتها الجميلة سواء التي رأيتها في غرفة "بغيبن" مع زوجها الاول، أو التي تخيّلتها هي لجياتها مع كليوباترة، إنقلبت تحت وطأة السنين الى كتل من التجاعيد. كانت أشبه بصندوق خفيف له ساقان ورأس غائر العَينين. لم أشعر بأيّ جهد وإنا أحملها الى الحمام. تغلّبت على الرائحة الكريهة والقذارة، وقاومت شعوري بالإشمئزاز. كنت اؤدّي دوري كأيّ ممرض. المفاجأة غير المتوقّعة أنستني الخمرة والسكر، وأعادني الصحو الى هدوء مطلق إستوعبته كلّ خلاياي. كم كنت أشعر بالفخر، وحين رأيتني أهمّ بقتل جثّة إجتاحني شعور من القرف اكثر مما كنت أحسّه وأنا أنظف جسد العجوز. لم أعد أفكّر بشيء سوى ان أتلذذ بابتسامة بريئة تنطبع على وجه العجوز المسكينة، تلك الابتسامة مسحت بها شعوري

بالذنب تماماً.

أعدتها الى الفراش ثانية.. وضعتها بهدوء. إزدادت إبتسامتها إتساعاً إذ شعرت بالنظافة والعطر، كأنّها تعجز عن شكري. تركتها وإنصرفت الى المطبخ. هناك وجدت في المبرّدة بقايا من خضار وفواكه إبتضعها لها ابنها قبل يومين. أعددت لها صحناً، من الخضار، وسخّنت لها شاياً، وفي غرفة النوم تركت الصينيّة الصغيرة جنبها على الفراش. لم تأكل منذ يومين، ومع ذلك فقد تناولت قليلاً من الطعام لأنّ الجوع الشديد أفقدها شهيتها بالمرة.

- هل لك ان تساعدني على إرتداء البدلة البيضاء؟

كانت تصّر وهي في أضعف حالات المرض أن تنام مع سيّدتها. الشيء الذي يشخص امامي يجعلني أضحك وأبكي. مأساة تندمج بملهاة، حزنٌ يمتزج بفرح. حدّثت نفسي: يمكنني ان أقتل ضحاياي، من دون ان يرونني، أمّا هذه المسكينة، فكانت قد قدمت اليّ عبر السنين الراقدة على ابتسامتها، وفي سِريرها الاثري، وصورة سيدتها فوق رأسها:

- عندما كنت وصيفة كليوباترا، كان لي ابنان، امّا الآن فأستطيع ان اعدّك ابني الصغير، ولدي المشاكس الذي فقدته في إثناء اقتحام القصر وعثرت عليه بعد كلّ هذه المدّة الطويلة.. اووه ولدي المشاكس الصغير.

- يمكنك ان تقولي ذلك

- آه النظافة رائعة. أستطيع الآن ان انام، لكنّك ياولدي الصغير المشاكس تستطيع أن تقصّ على أمّك قصّة عن حفيدتها شهرزاد حتّى تغطّ في نومها

حصرت ذهني أبحث في الماضي عمّا أذكرهُ من الف ليلة وليلة. لم تسعفني الذاكرة، لكنني سألتها فجأة:

- لديك كتاب الف ليلة وليلة بالدنماركيّة، سأقرأ لك قصّة منه.

- ألم أقل أنّك ولدي المشاكس

أجبتها بابتسامة، ثمّ خطوت الى المكتبة. عدت أحمل الكتاب. فتحته من المنتصف، وفضلت ان أعتمد على المصادفة وحدها في اختيار قصّة لها... وبدأت اقرأ:

قررت ان أمتنع عن السّفر لأنني لم أعد شاباً غير أنّ الخليفة بعث في طلبي أحد الايام وحمّلني رسالة وهدايا الى ملك سرنديب، وبعد أن تمّ اعداد السفينة وواتت الفرصة للسّفر أبحرت الى سرنديب.

أكرمني ملك سرنديب، وشكرني. بقيت في ضيافته عدّة ايّام، ثمّ بدأت رحلة العودة الى موطني.

مرّ علينا في البحر ثلاثة ايّام حين هاجمنا القراصنة. قدموا بسفن كثيرة، وإستولوا على سفينتنا، فأبحروا بنا الى احدى الجزر وباعونا هناك.

وشاءت المصادفة أن يشتريني رجل طيب، عرفت

بعدئذ انهّ شيستخدمني في صيد الفيلة. ذهبنا الى الغابة، وصعدتُ مع الرجل الى شجرة، فعلّمني كيف أطلق سهامي على أحد الفيلة اذا رأيتها ، وسيأتي الرجل صباح اليوم التالي ليأخذ أنياب الفيل.

واضبت على عملي، فأعجب بي الرجل، وقد قال لي ذات يوم سأعطيك ناباً من كلّ عشرة تأتيني بها، واذ يصبح عندك مائة ناب تستطيع ان تشتري بها نفسك وتصبح حراً.

وفي يوم من الايام، رميت بسهم على أحد الفيلة فجرح وتمكن من الهرب، امتلأت الغابة صخباً، لأنّ الفيلة راحت تبحث عنّي وفجأة أحاطت بشجرتي مما اضطرني الى أن أصعد أعلى الشجرة.

وقفت الفيلة حول الشجرة، واقتلعتها من الجذر، وضعتني على ظهر أحدها، وظلّت تسير بي من واد الى آخر، لتتوقّف في وادٍ صغير تحيطه التلال....

تذكّرت حكاية سمعتها عن مكان تذهب إليه الفيلة كي تموت. رفعت اليّ نظراتها، كأنّها تقول لي شيئاً ما، ففهمت من اشارتها انّها تعني: كان بإمكانكم ان تأخذوا هذه الانياب، وتمتنعوا عن قتلنا. أبديت اسفي، وعبرت عن مشاعري بحراكات يدي، ونظراتي، فأصبحت الفيلة سعيدة بذلك، وساعدتني في معرفة طريق العودة.

رافقت سيدي التاجر الى المكان المقصود، فأدهشته كثرة الانياب. شكرني على فعلي، فتوقّف الناس عن

صيد الفيلة، وملأوا لي سفينة بالانياب، بعتها حين وصلت الى البصرة وبغداد.
وكانت تلك آخر رحلةلي في بلاد العجائب)).

لا أدري أيّة لحظة راودها النوم. تطلعت في وجهها فوجدتها تغفو وعلى شفتيها إرتسمت إبتسامة أوحت اليّ عن شعورها بالامن والراحة. اغلقت الكتاب، وغادرت المقعد الى صالة الاستقبال. هناك تمدّدت على المقعد الجلدي الطويل.. كأنني القيت ظلّا ثقيلاًعن صدري كدت اكون أسيره لولا انّ الماضي حاصرني فيه آخر لحظة، ولعلّ الشعور بالراحة أنساني الخمرة والشرب. في لحظات الصفاء تلك، استسلمت للهزيمة بشرف. بعض الاحيان نفضّل الانكسار على النصر خاصّة اذا كانت الهزيمة قادمة من التاريخ. فكرة سوداء خطرت بذهني ثمّ إنمحت. فكرة واحدة فقط:

الا يمكن ان تكون كلّ هزائمنا بسبب التاريخ، تعلّقنا به بشكل قويّ حتّى اذا اهتزّقليلاً إنهارت قوانا، غير انّ الخاطر الجميل محا تلك الفكرة السوداء، بعدها غمرتني أحلام جميلة عشتها لحظات اليقظة، ثمّ وجدتني أغطّ بنوم عميق.

- ٩ -

ثلاثة أيّام مرّت، كنت خلالها أساعد أمّ "بغيبن" في تناول الدواء. أعدّ لها الطعام. أتحدّث معها، وأخفف عنها الشعور بالوحدة، امّا أصعب الدقائق فقد تمثّلت في اللحظات التي أحملها الى الحمام حيث أقوم بتنظيفها، ومع ذلك بدأت في اليوم الثالث أعتاد على القذارة والرائحة الكريهة.

وكانت هي تعاملني بلطف. اقترحت عليّ ان أهجر جزيرة ( ) واسكن معها لأوفّر مبلغ الايجار. ليس هناك شيء يسعدها أكثر من أن تغفو على صوتي وأنا اقرأ لها عن السندباد والقصص المثيرة في (الفَ ليلة وليلة). الحياة الجديدة جعلتني أنسى الخمرة تماماً ولا أعود للتفكير فيها، كأنّ الاستقرار والاحلام الجميلة التي أقضيها مع السندباد، أصبحت البديل عن شيء كنت افتقد اليه ولا أجده إلا بالسكرة. ام "بغيبن" رحلت من عصر كليوباتره الى السندباد، ولا يصعب عليّ انا الاقرب ان أسافر اليه، وأعيش معه في جزره الغريبة البعيدة... لذلك بدأت معها من أوّل الكتاب حتّى نرحل انا وهي

كلّ ليلة الى عالم جديد من عوالم شهرزاد.

صباح اليوم الثالث خرجت لأشتري من السوق القريب بعض اللوازم الضروريّة. سمعت، وأنا أهمّ بالخروج، جرس الهاتف، فإنصرف ذهني مباشرة الى "بغيبن". ربّما حاول ان يتأكدّ من صوتها. سيكون الامر مفاجأة له. أطلقت نكتة شماتة وهتفت:

فاجأته مثلما فاجأني، ها نحن الشرقيين نثبت قدرتنا على المناورة.

لم يطل مكوثي في (السوبر ماركت) القريب، فقد رجعت بعد دقائق لأجد خبراً جديداً ينتظرني. قالت: أيها الولد المشاكس إنّ "إنغذ" إتصلت بها. إنّها تبحث عنّي في كلّ مكان لأمرٍ ما لا يمكن تأجيله، وهي الآن في الطريق إلينا. بان الانزعاج على وجهي، وإعترفت للعجوز أنّي نمت مع "انغذ" بعد إنفصالها عن "بغيبن" لكنّي قررت أن أتخلّى عنها لأنني أحبّ "بيا".

- اووه انتم اولاد متعبون. على ايّة حال هذا أمرٌ غير ذي بال.

اكدتُ بحماس:

- عليها ان تتركني

- لا شك لكنْ قل لي هل صارحت "بيا" بما فعلته؟

- قبل أيّام قليلة.

ـ تلك أشياء طبيعيّة لا تنفي الحبّ أنا نفسي وقعت مرة في مغامرة مراهق. كان ذلك عام ١٩٤٥ جربت معه الحبّ لأنّه تحداني. كان يقول ان الرجل يمكن ان يظلّ يداعب المرأة اكثر من ساعتين في الفراش. استنتج فكرته من الحرب حيث قضى اربع سنوات مع الجيش الانكليزي والفرنسي. إن الجندي الذي عاش اربع سنوات بين الخنادق يقدر على التحكمّ بأعصابه كما يتحكمّ بالصبر والضجر. لكنّه (قالت ذلك بابتسامة واسعة كأنّها تعبر زمناً لذيذاً ينسيها الالم والمرض) خسر الرهان حين جربت معه الحب. أخبرت زوجي بالقصّة (اكدت بصوتها الضعيف) ذلك لا يهمّ ما دمنا نفعله عن قناعة، ولا نخفيه عن أقرب الناس الينا

الحبّ الجسد، ممارسة الجنس مع شخص آخر، ايتها السيدة الهاربة من قصر كليوباترة، أشياء كنت أسمع بها وأراها الآن شاخصة أمام ناظري حالة الازدواج عشتها وأنا أبني علاقة جسدية مع "انغذ" لأكتشف في آخر لحظة كما اذكر أنّي أحبّ "بيا". كانت الحوريّة التي أحببتها تؤكدّ لي بنظرة عميقة من عينيها أنّها ستبقى لي:

ـ ستنسينني حين تتزوّجين؟

ـ اشعر بقشعريرة وانا أتخيّل رجلاً غيرك يلمس جسدي.

كنت أجلس على الكرسيّ القريب من سرير العجوز. عندما رنّ

جرس الباب لينتشلني من رائحة شرقيّة قفزت الى ذهني مباشرة، وغزت حواسّي. ينبغي ان اكون واقعيّاً أمام المرأة الساحرة، وألا أضعف أمامها.

دخلت "أنغذ" وعلى شفتيها إبتسامة واسعة باهتة، كأنّها نسيت كلّ شيء. امرأة لاتترك الرجل إلا بإرادتها. هذه المرة سأكون صريحاً معها الى أبعد الحدود. إلتقطتْ أنفاسها على المقعد بعد أن حيّت ام "بغيبن" ثمّ توجّهت اليّ بالكلام:

- كنت أبحث عنك في كلّ مكان.. أخيراً أنت هنا.

تحاشيت النظر اليها. لم اكن سكران، ولست بحاجة الى سكر لأواجهها. لقد قابلت عينيها وسطوتها بجرأة غير معهودة:

- يجب ان تعرفي أنّي سأعقد خطبتي على "بيا" في الايام القادمة.

إرتسمت الدهشة على وجهها. خلتني إنتصرت عليها. سحقتها بوضوحي وصراحتي، مثلما إنتصرت عليّ بجرأة امرأة لم أعهدها من قبل. امرأة صعبة المراس لا تقرّ بالهزيمة. دفعني الحرمان أول الامر الى ان أرضخ لها، ثمّ انتفضت ولا فرق عندي بين الهزيمة والنصر.

- هذه مسألة لا تخصّني. الذي جئت من أجله هو أنّي زرت الطبيب أول امس فأخبرني عن حمل مؤكدّ، لذلك كنت أبحث

عنك.

فاجأتني عبارتها. إستقبلت صفعة قويّة أدارت رأسي، فبدأت اترنّح، وأفقد الرؤية، توقّعت كلّ شيء إلا ما حدث. هذه اللحظة أصدق الاخبار حول الساحرة. امرأة تحاول الانتقام بطريقة ذكيّة. لا تترك الرجل إلااذا قررت هي... امّا أمّ "بغيبن" فكانت تنصت بصمت، ربّما وقعت أيضاً تحت تأثير المفاجأة.. أخيراً انتبهت الى نفسها، فوجدتُ في سؤالها العزاء:

- متى نمت آخر مرّة مع "بغيبن"

- منذ ستة أشهر (واكدت جازمة) الدكتور أثبت ان الحمل حدث منذ شهرين الساحرة أوقعتني في الفخ، حتّى لو أحرقناها فهي كالقطة بسبعة أرواح، وستعود وتنبثق من رمادها مرّة أخرى. أب. أنا أب، ولدي ابن حرام، أقرّبه على الرغم منّي. مادامت الامّ تعرف الاب، فسيصدّقها القانون، وما عليّ إلا أن أقرّ بالامر الواقع، والأسوأ ما في الامر ان يأتي المولود أنثى تحمل اسمي.. وملامحي السمراء، وسيغلي الدم في عروقي حين أعرف انّها تضاجع كلّ يوم رجلاً لكنّي لا أستطيع انِ أفعل ايّ شيء. كلّ شيء ممكن.. إحتمالات أذهلتني الى درجة توقّفت عندها عن الكلام، فلم أجد شيئاً ألوذ به إلا الصمت.

وكانت هي تعقّب:

ـ أنا متأكّدة انّ الجنين سيحمل بعض سمات والده الشرقيّة، فلا مجال للشكّ في أبيه. انا متأكّدة (كررت عبارتها السابقة بتصميم) تأكّدي من اسمي.

أنا أب!! هذا ما تريده "أنغذ"، لتثبيت قوّتها أمام رجل حاول تركها، والجنين القادم ابن حرام. لا عقد. لا زواج، لا قراءة للفاتحة. امورٌ مقرفة تجتاحني.. في البدء حاولت أن انتقم لنفسي من اوربا. انا من دولة نامية. شخصٌ من العالم الثالث الذي لا ينتج طائرات ولا سيارات، عالمٌ غريب يستورد الطعام والملابس، بالضبط مثل العجزة الذين يعيشون على حساب الآخرين، وسلاح لديّ انتقم به غيرُ الجنس. أسعد لحظات حياتي ان أجعل امرأة تتأوّه بين يديّ في الفراش، كأنّي أنتقم لتأخرّي. بهذه الطريقة أنتقم من اوربا،-وأفرغ كبتاً طويلاً، فرضه عليّ المجتمع الشرقيّ. ضربت عصفورين بحجر واحد فإرتدت الضربة عليّ. جعلتني اترنّح لحظات.. وفجأة... إنتفضت استعيد وعيي. اجتاحني حماس وغضب، وانا أتخيّل إبنتي ذات الستة عشر عاما تمارس الجنس يومياً مع رجل وهي سعيدة بذلك. كان لابدّ لي من السكون السابق اذ سرى في جسدي قبل وقت قصير لألّمّ به شتاتي، فقد يكون هو الهدوء المرتقب قبل العاصفة...

أخيراً إنتفضت...

إندفعت نحوها بعنف، وصحت: عاهرة.. كلا... ساحرة..

عاهرة.. قذرة.. هويت عليها بقبضتي. صفعتها عدّة صفعات على وجهها، ثمّ وجهت لكمات قويّة الى بطنها. لاأدري كم ضربة ضربتها. كنت أنهال عليها بعنف، حتى تهاوت وسقطت من غير حراك... تكوّرت على الارض أشبه بكومة ازبال، وكانت انفاسها شبه هامدة.

كنت أعيش انفعالاتي خلال سخونة اللحظات، كانني أحاول ان أختصر الزمن، حيث غبت عن الوعي تماماً، في حين ظلّت نظراتي تتحوّل بين ضحيّة تكورت على الارض قرب قدمي، وعجوز مشلولة راقدة على السرير راحت تتطلّع اليّ بذهول، وبعد لحظات:

ـ أهكذا تقتل طفلك؟

لم أعد أفكر بأيّ شيء على الاطلاق. كنت بحاجة الى أن أهرب من هذا المكان لكي أتحاشى المشهد. لا شكّ في ان ضرباتي كانت قاسية، ومتوحّشة الى درجة لا توصف،وربّما تكون كافية لإجهاض الجنين. جئت الى هنا لأقتل شخصاً عن سبق اصرار، فقتلت آخر خطأ كان سيكون إبني فيما لو قدّر له ان يعيش. كلّ تعابير العجوز توحي بالقرف والإشمئزاز. سلوك غير حضاري. أنا همجي أميل الى استعمال القوّة لأحسم المواقف، مع صوت امّ بغين الواهن، ونظراتها التي تنمّ عن القرف، إنتشلني صوت قويّ. صوت كاد يمزّق اذني. كانت ساعة الصالة الاثريّة تعلن عن الثانية

عشرة.. فجأة دفعتني دقّاتها القويّة الى ان اتذكرّ شيئاً ما نسيته منذ وقت قصير. تطلعت في ساعة يدي فوجدتها تنقص خمس دقائق فقط، فإنتبهت الى نفسي. انتبهت الى ان الزمن خدعني، ولا شيء امامي سوى ان اخرج من هذا الجوّ المشحون بالغثيان.. كنت اخطو الى الخارج مثل شيخ هرم تقوده قدماه الى حيث لا يدري.

كوبنهاغن
١٩٩٠/٨/٢٩